وزارة المعارف العمومية



أدب الإسلام

للمدارس الثانوية

الجزء الرابع

لتلاميذ السنة الرابعة

ألفه بتكليف خاص من وزارة المعارف الأساتذة

محمد أبو بكر إبراهيم   مصطفى خفاجى   على محمد حسب الله

محمد عبد الرءوف بهنسى

اشترك فى تأليفه وراجعه الأستاذان

محمد أحمد جاد المولى بك   على الجارم بك

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٨

إهـــــــداء2005

أ.د./ محمد عثمان نجاتي

القاهرة

وزارة المعارف العمومية



للمدارس الثانوية

الجزء الرابع

لتلاميذ السنة الرابعة

ألفه بتكليف خاص من وزارة المعارف الأساتذة

محمد أبو بكر إبراهيم مصطفى خفاجى على محمد حسب الله

محمد عبد الرءوف بهنسى

اشترك فى تأليفه وراجعه الأستاذان

محمد أحمد جاد المولى بك على الجارم بك

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٨

فهرس الكتاب

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم استتماما لنعمتك ، وإقرارا بربوبيتك ، ونستعينك مفتقرين إلى هدايتك التى كشفت عن القلوب حجب الظلام ؛ فكانت أمنا لمن تعلق بها ، وسلما لمن دخلها ، وبرهانا لمن تكلم بها ، وتبصرة لمن عزم ، وعبرة لمن اتعظ ، ونجاة لمن صدق .

ونصلى ونسلم على نبيك الكريم الذى أرسلته بالدين الحنيف ؛ ليتمم مكارم الأخلاق ، ويدعو إلى الحق فى جميع الآفاق .

اللهم صل وسلم عليه وعلى جميع الرسل والأنبياء والآل والصحاب .

وبعد فهذا كتاب نقدمه للناشئة المثقفة ، جمع بعض ما يشتمل عليه الإسلام من كريم الآداب ، وأحاسن الأخلاق ، ومن الحكم الغالية ، والأغراض العالية ، وما تضمنه من التشريع السامى الذى رفع الجنس البشرى إلى أشرف منزلة ، وأرفع أوج . هذا إلى تفسير كثير من الآيات الشريفة ، والأحاديث الكريمة التى جمعت من الأحكام ما فيه سعادة الدنيا والآخرة .

وقد جاء هذا الكتاب على وفق المنهج الأخير الذى وضعته وزارة المعارف لطلبة المدارس الثانوية ؛ لإحياء الدين فى نفوسهم ، وتطهيرها من شوائب السوء ، وطبعهم على شريف الأخلاق وكريم الخلال .

والله نرجو أن يكون لكتابنا هذا من الأثر النافع ما يحقق آمالنا .

وبالله وحده التوفيق ،،

ذو القعدة سنة ١٣٥٦ هـ
يناير سنة ١٩٣٨ م

المؤلفون

الموضوعات الاجتماعية

الإسلام وتقريره حقوق الإنسان

أتى الإسلام بدستور عظيم للعالم أجمع مقررٍ حقوق الإنسان الطبعيةَ التى تكمل إنسانيته وتكفل سعادته، وتجعله أهلا للتكاليف الشرعية ولكافة أنواع التبعات، وتفسح أمامه ميدان العمل للدين والدنيا وترفع نفسه إلى منزلتها اللائقة بها وتدفعه إلى أن ينشد الكمال المقدر له .

فوضعت الشريعة الغراء مبادئ العدالة والأُخوة والمساواة وبها تنتظم الشئون الدنيوية والأخروية، ويتحقق العمران، ويعيش العالم فى أمن وسلام . قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَـٰنِ) وقال جل شأنه : (إنما المومنون إِخْوَةٌ) وقال : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَـٰكُمْ) .

وينطوى فى هذه المبادئ السامية كل أنواع الحقوق التى يتمتع بها الفرد . وأهمها حق الحياة — فلكل إنسان الحق فى أن يعيش الحياة التى كتبت له، وأن يقضيها فى أحسن الأعمال التى تنفعه وتنفع الناس جميعا، وأن يصون نفسه من التهلُكة ويحفظ جسمه بمراعاة الشروط الصحية .

والواجب على الناس أن يحترموا هذا الحق فلا يتعدَّوا عليه بأذى أو قتل . وكل من تعدى على حياة شخص آخر بقتل عُدَّ قاتلا واستحق أشد العقوبات وكان من العدل أن يُسْلَب منه حق الحياة . وقد جهلت بعض الأمم قدسية هذا الحق فقد كانت بعض قبائل العرب تئد البناتِ خوفا من العار وتئد الأولادَ خشية الفقر .

وكثير من الأمم كانت تقتل أسرى الحروب متى ظفرت بهم، وفى بعض الأمم الراقية لا يزال حق الحياة معرضا لخطر كما هو الشأن فى تلك الحروب التى تُشْعل

الأمم القوية نارها لا دفاعا عن الوطن ولكن حبا فى الاستعمار والفتح وامتلاك الثغور وتسخير الشعوب ، وتنفق فيها كثيرا من دماء أبنائها وأموالهم ؛ وفى ذلك مخالفة للشرائع السماوية وجريمة على الإنسان والإنسانية .

وقد نهى الدين عن القتل وعدّه من الكبائر التى يعاقب عليها صاحبها فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالعذاب الأليم . فقال تعالى :
(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) ، وقال : (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) .

وشرع الإسلام القصاص من القاتل محافظة على حياة الأفراد وصونا لها من التعدى عليها من الجانين المجرمين ؛ فالقتل أنفى للقتل قال تعالى : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) .

ومن أهم الحقوق الإنسانية التى أتى بها الدين القويم حق الحرية ونوضحه فيما يلى :

الحرية

الحرية هبة من الله وهى حق للفرد من يوم ولدته أمه .

وقد مُنِح الناس الحرية لأمرين :

أولها — أن حب الحرية طبعى متأصل فى نفس كل إنسان ؛ فمن الظلم أن يسلب هذا الحق من غير سبب .

وثانيهما — أن الإنسان لا يستطيع أن يكمل نفسه ويقرر مصيره ويصل إلى غايته إلا إذا كان حرا ؛ لأن الحرية قاعدة الفضيلة ، ومناط التكاليف . والعبودية تنزل الإنسان من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الحيوان ، وتسقط عنه تبعات الحياة .

وليست الحرية، كما يفهم بعض العوام، مسوغا يرخص للإنسان عمل كل شئ ولو محرما أو أمرا خارجا عن حد الشرع والأدب : فتراهم باسم الحرية يتعاطَوْن المنكرات ويرتكبون الجنايات ويجاهرون بالتمرد والعصيان . وباسم الحرية لا يكرمون والديهم ومعلميهم ، ولا يحترمون من هو أكبر منهم سنا وعلما وفضلا .

وباسم الحرية تخرج النساء فى الشوارع والطرقات ويبدين زينتهن لكل ناظر وسائر، فهذه هى الحرية الفاحشة ، والحرية المنكرة ، بل هى الفوضى والهمجية

أما الحرية الصحيحة الشرعية الصالحة للعالم بأسره فهى أن يكون لكل إنسان الحق فى أن يفعل ما يشاء ما لم يترتب على فعله إخلال بالواجب المفروض عليه ، أو انتقاص لحرية غيره ، فهى حق ما دامت مقيدة وفى حدود القانون والنظم الدينية والإجتماعية . وكل إنسان حر فى أن يفعل ما يشاء بشرط ألا يتعدى على غيره . وهو حر يتمتع بحقوقه المادية والأدبية ، لا يعبث بامتيازات غيره ، ولا يهضم حقوق أحد . ولا يستبد ولا يستبدّ به ، بل يقف عند حدّه محترما حقوق غيره محافظا على شرفه ومركزه .

وكما أن له الحق أن يكون حرا يجب عليه أن يحترم حرية الآخرين : وهى بهذا المعنى شعار العدل وسُلَّم المجد ، وأساس العمران ، وروح الأمن وعماد النظام ، وداعية الاستقلال وحليف السلام .

والحرية بهذا المعنى لا تنافى قيام السلطة الحاكمة ، بل هى لا تتم إلا بها ، إذ هى الكفيلة بكف عدوان الأفراد بعضهم على بعض ووقف حرية كل فرد عند الحد الذى لا يسيء فيه إلى حرية الآخرين أو إلى مصلحة المجموع .

ويجب أن يُضَم الى شعور الشخص أنه حر وأنه سيد نفسه — شعور آخر بأنه لا يعيش وحده ، ولكنه عضو فى جماعة ، وأنه مسئول عن حرية هذه الجماعة .

ومن مميزات الأمم الراقية نماء هذين الشعورين فى أفرادها وتعادلها أعنى الشعور بالحرية والشعور بالمسئولية حتى يستعمل كل فرد حريته فى خيره وخير الناس .

وقد جاء الدين الاسلامى حاثا على الحرية الصحيحة داعيا إليها لأنها من حقوق الإنسان ، ولما يترتب عليها من الخير العميم والفضل الجسيم .

وللحرية جملة أنواع أهمها ما يأتى :

١ — الحرية الشخصية :

وهى أن يكون الإنسان حرا طليقا فى غدوه ورواحه ، وظعنه وإقامته ، يقيم فى هذا المصر ، وينتقل منه إلى ذلك القطر ، دون أن يمنعه من ذلك فرد آخر ، ولا يكون عرضة للقبض عليه بعقوبة ما لم يكن ذلك كله بسبب مشروع .

واستمتاع الإنسان بحريته رَهْنٌ بأداء ما عليه من الواجبات ، واحترام حقوق غيره من الناس وحرياتهم . فان هو قصر فى أداء واجباته ، أو اعتدى على غيره فقد أجرم على حرية نفسه ، وعرضها للعقاب ، ومهد الأسباب لتَحَيُّفها ، ونقصها من أطرافها ضمانا للحقوق والواجبات العامة . فالذى يعتدى على غيره بالضرب ونحوه ، أو يعتدى على مال غيره بالسرقة أو ما أشبهها يعرض نفسه للعقاب بالحبس وغيره فى الدنيا والعذاب الشديد فى الآخرة . وعلى الجملة ليس لمن لا يرعى حقوق الناس وحرياتهم أن يندب حريته الشخصية إذا تعرضت للتعطيل أو التقييد .

ومن الحرية الشخصية : حرية الفرد وهى ألا يكون لأحد سيادة عليه . وهذه الحرية هى ضد الاسترقاق . فان الرق هو حرمان الشخص من حريته الطبعية ، وصيرورته ملكا لغيره .

وقد حث القرآن الكريم فى مواضع كثيرة على الحرية وتحرير العبيد الأرقاء . ففى كثير من الآيات تجد الحث على التحرير فى الكفارات والفدية قال تعالى :

« وَمَنْ قَتَلَ مُؤمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » .

أى أن كفارة القتل الخطأ هى إعتاق رقبة . وقال تعالى فى التكفير عن اليمين .

« لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَـٰنِكُمْ ، وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » .

ويقول جل شأنه فى شأن المكاتبين الذين يبتغون الحرية :

« وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِى ءَاتَـٰكُمْ » .

وفى هـذه الآية حث وإلزام لسادة العبيد بمنحهم شيئا من المـال مساعدة لهم على تخليصهم من العبودية . فكان من زهد الدين فى الرق ، وإغراء الناس بعتق الرقاب خير عون على محو الاسـتعباد ، ودرس معالمه . على حين أن الرق كان منتشرا لدى اليونان القدماء . فكان الفقراء يعتبرون عبيدا للأغنياء ، ولكن الدين الإسلامى جاء حاثا على إزالة الظلم ، وتعميم الحرية والمساواة بين الناس .

ومن ألوان الاسترقاق : الإفراط فى استعمال حق السلطة أو الولاية من الحكام أو الآباء ورؤسـاء الطوائف أو المعامل بفرض أعمـال غير مشروعة على من تحت نفوذهم ، وهـذا هو الذى دفع إلى وضع القوانين واللوائح الخاصة بحقوق العمال وأصحاب المعامل وغيرها ، لصون حرية العمال والرفق بحالهم ، ومراعاة أعمارهم حتى لا يقعوا بسبب فقرهم فى الاسترقاق المعنوى .

٢ — حرية الفكر والرأى :

وهى حق محدود يبيح لكل فرد أن ينشر عقيدته إذا لم يكن فى نشرها ما يقلقل نظام المجتمع ويؤدى إلى الفوضى ، أو لم يكن فيها ما يناقض المبادئ الدينية أو يتنافى مع الأصول الأدبية التى رسخت وأصبحت من أركان المثل العليا

ولحرية الفكر وبث الرأى شأن فى رقى المجتمع لأن الترقى الاجتماعى السائر إلى المثل الأعلى إنما هو نتيجة ما يدخل إلى المجتمع من الآراء الجديدة التى تهذب بالعادات والعرف والأمور المتوارثة .

ولهذا كان من حق الفرد أن يجهر بآرائه ما دام يعتقد أنها الصواب حتى تمحص هذه الآراء فتظهر الحقيقة ويتغلب الحق على الباطل (والحقيقة بنت البحث) ، ولا خطر من إطلاق حرية الرأى ما دام هناك عقل اجتماعى يزن ورأى عام يؤيد أو ينبذ . أما قتل حرية الفكر فيصيب العقول بالجمود ، والقرائح بالركود ، ويلجئ إلى اتباع الخرافات والأباطيل ، ويدفع المجتمع إلى الوراء .

والحرية الفكرية ضرورية للانسان ، فهى أخص صفاته ؛ بل هى التى ميزته عن بقية الكائنات وجعلته أشرف المخلوقات .

وإذا كان الاجتماع المدنى أو كان الدين قد وضع بعض القيود لحريتنا الفكرية فذلك لحد مظاهرها ، لأن ضرورة المحافظة عليها قضت بتقييدها حتى لا تنحط إلى درجة الإباحة .

وإذا كانت زية العمل حقا طبعيا للانسان وجب أن تكون كذلك حرية التفكير فاننا نعمل وفق أفكارنا وليس لمخلوق أن يحبس أفكار غيره أو يمنعه من الاجتهاد والبحث والتفكير وإبداء ما يراه لمصلحته ومصلحة المجموع .

ويدخل فى حرية الفكر حرية القول ، فمن منع إنسانا حرية القول فقد غصبه حقا مشروعا له ، ومنعه عن أداء واجب عليه للجماعة التى يعيش فيها . ولا يتم إخلاص

العالم للعلم إلا إذا قال ما يعتقده حقا من قواعده، ولا تم للفرد وطنيته إلا إذا أظهر ما يعتقده صالحا لقومه ، ولا يكمل له دينه إلا إذا جهر بالحق وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر . والذين يتعرضون لحرية الكلام إنما يطفئون نور الحق بأفواههم ويمسكون الإنسانية على هُون من الجهل القاتل .

وإن الحكومات المتمدينة ورؤساءها قد أفسحوا مجال القول الحر أمام أبناء الأمة وسهلوا عليهم طرق انتقاد الحكام، وأعظم تلك الطرق مجالس النواب والصحف والجماعات والنقابات فهى الكفيلة بالتنقيب عن أعمال الولاة والحكام ومحاسبتهم، فيدخل فى حدود حرية الفكر حرية الصحافة ، ونعنى بها أن تكون الصحافة حرة فيما تكتب : لا تتقيد بشىء إلا ما يقيدها به القانون، ولا يكون عليها سلطان إلا سلطان محاكم البلاد والآداب العامة . وهى تستحق حماية الحكومة وحرص الأمة على تشجيعها وانتشارها ؛ لأنها تقوم مقام المعلم والهادى والمرشد فى الشؤون العامة، لأنها الواسطة بين الحاكم والمحكوم : تعلم المحكومين حقوقهم وواجبهم وتبصر الحكومة برغبات الأمة ، وتبين لها عيوب ما تتبعه من نظام .

وهذه الحرية يقابلها واجب على أرباب الصحف ألا يتخذوا صحفهم وسيلة لنشر الأخبار الكاذبة التى من شأنها تكدير صفو السلم العام، ولا ذريعة للنقد الخارج عن حدود الاعتدال . ولا للنيل من أعراض الناس، وأن يكونوا فى نقدهم لأعمال الهيئات العامة ناصحين ومرشدين : لا يبتغون شفاء للأضغان ولا يَصدُرون عن رغبة فى التشهير والتعريض . فمن تجاوز منهم حدوده فقد حقت عليه كلمة القانون .

وقد أطلق الدين الإسلامى للناس حرية التفكير والرأى ليمحّصوا الحقائق ويتبينوا الرشد من الغى ويصلوا بذلك إلى ما هو خير للأمة .

٣ — حرية العقيدة :

أنحى الإسلام على التقليد وحمل عليه جملة، وصاح بالعقل صيحة أن يبحث وينقب ليصل بالدليل والبرهان إلى أسرار ما أتى به الشرع الشريف من الأصول والقواعد والعبـادات ، وذم الذين قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم مقتدون . ولذلك دعا الله عباده إلى التفكر والتدبر ، واشتمل القرآن على كثير من الآيات وجه فيها نظر الإنسان إلى التفكر فى مبدأ خلقه ووسطه وآخره ، إذ خلْقُه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره . ونبه الإسلام إلى الأدلة القاطعة والحجج الدامغة ليعمل الإنسان فكره فيها ويمحصها ويصل منها إلى أن العالم مخلوق بخالق حكيم . ونهى عن الإكراه فى الدين فقال تعالى :

« لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » .

فالإكراه ممنوع فى الإسلام على وجه الإطلاق ، والإسلام لم يدخل فى حرب إلا بعد ما أعيته وسائل السلم فلم يجد مفرا منها . والمسالمة ديدن المسلمين فى كل شيء منقادين لقوله تعالى :

« ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » وقوله صلى الله عليه وسلم : (يسِّروا ولا تعسروا) . وقد أوضح الله سبحانه وتعالى ذلك فى قوله : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ». وقال تعالى: «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » .

وما كانت حروب المسلمين إلا دفاعا عن أنفسهم إما لتعذيب قوم من الكافرين لهم ، أو تهديدهم إياهم . ومع ذلك لم يكونوا مندفعين إلى الحروب بل كانوا يدْعون مخالفيهم أولا إلى الإسلام بالاختيار ، فإن أسلموا حرم قتالهم ، وإن لم يسـلموا دعَوهم إلى أداء الجزية إن كانوا من أهلها كأنهم يقولون لهم : إنكم ألجأتمونا إلى حربكم فنحن نقدم عليه إلا أن تسلموا أو تؤدوا الجزية . ولهذا كان لأهل الذمة من الحقوق والعدالة ما للمسلمين (وأهل الذمة هم الذين يخضعون للسلطة الإسلامية ولا

يَدِينون بدينها) فقد حرم الشرع التعدى على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم ومن يفعل ذلك يُجَاز كما لو كان المعتدَى عليه مسلماً ، وذلك حتى لا يدخل فى الإسلام إلا من دخل الإسلام قلبه عن إيمان صادق ويقين صحيح وعقيدة سليمة غير متأثرة بعوامل الإكراه أو الاستبداد ، لأن مقاصد الدين الإسلامى اعتقاد الحق وإقامة البرهان عليه حتى لا يحوم حول الحقيقة شك ولا ريب ؛ فهو دين برهانى كفيل بإصلاح المعاش والمعاد ، أوجب الله فيه لزوم الحكمة والحرية المشروعة ، ولم يجعل القهر والغلبة والاستعباد منه فى شىء . ومنع سلطة الحكام واستعبادهم لعباده ، وربط معاملات الجميع بأحكامه الإلهية ، فبين الحدود والحقوق والواجبات ، وقرر أصول الحرية والأُخُوّة المشروعة بين المسلمين .

وكان المسلمون متى وضعت الحرب أوزارها ، واستقر السلطان لهم عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين ؛ وأباحوا لهم البقاء على أديانهم وإقامة شعائرهم آمنين مطمئنين .

وكان الملوك من غير المسلمين اذا فتحوا مملكة حشدوا جيشا من الدعاة والمبشرين الى دينهم ، يلجون على الناس بيوتهم ، ويغشَون مجالسهم ، ليحملوهم على دين الظافر وليس لهم برهان إلا الغلبة ، وليست لهم حجة إلا القوة . ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ، فلم يعهد فى تاريخ الإسلام أن كان لهم دعاة معروفون يأخذون أنفسهم بالعمل على نشره ، ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين . بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من سواهم ومحاسنتهم فى المعاملة ، وشهد العالم بأسره أن الإسلام كان يعُد مجاملة المغلوبين فضلا وإحسانا حين كان يعدها غيرهم ضَعة وضعفا .

وقد رفع الإسلام ما ثقل من الإتاوات وردّ الأموال المسلوبة الى أربابها ، وانتزع الحقوق من مغتصبيها ، ووضع المساواة فى الحق عند التقاضى بين المسلم وغير المسلم .

هذا، الى أن خلفاء المسلمين وملوكهم قد استخدموا بعض أهل الكتاب وصعدوا بهم الى أعلى المناصب ، واشتهرت حرية الأديان فى بلاد الإسلام حتى هجر اليهود أوروبا فرارا منها بدينهم الى بلاد المسلمين .

هذا ما كان من أمر المسلمين فى معاملتهم لمن أظلوهم بحكمهم : لم يفعلوا شيئا سوى أنهم حملوا الى أولئك الأقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ولم يستعملوا شيئا من القوة لإكراههم عليه . وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليهم، ومن أجل ذلك أقبل أهل الأديان المختلفة على الإسلام ودخلوا فيه أفواجا لما اقتنعوا أنه الحق وتركوا دياناتهم الباطلة، لأن الدين الاسلامى وجد الى قلوبهم منفذا والى عقولهم مخلصا وغلب على المسلمين فى كل زمن روح الإسلام؛ فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم فانتشر الإسلام بسبب ذلك حتى وصل فى أقل من قرن الى حدود الصين شرقا والى حدود البرانس غربا .

ولقد افترى بعض المتعصبين افتراء على الإسلام فقالوا : إن الإسلام لم ينتشر فى العالم بهذه السرعة إلا بالسيف ، وإن المسلمين فتحوا ديار غيرهم والقرآن بإحدى اليدين والسيف بالأخرى يعرضون القرآن على المغلوب؛ فإن لم يقبله كان الحكم للسيف ! سبحانك هذا بهتان عظيم . فان المسلمين قد أحسنوا معاملة من دخلوا تحت سلطانهم ، ولم يشهروا سيوفهم إلا دفاعا عن أنفسهم وكفا للعدوان عليهم ، وجاء الفتح بعد ذلك نتيجة طبعية لما سلكه الدين من مسالك قويمة فيها صلاح للناس أجمعين .

ولو كان السيف، كما يقول المفترون، هو السبب فى نشر الدين لما انتشر بهذه السرعة ولما بقى أبد الآبدين ، إنما سطع الإسلام على الديار وسمع الناس كلام الله وتفقهوه فأسلموا طائعين مختارين لا مكرهين ولا مرغمين، فتمسكوا بأهداب الشريعة الغراء وعملوا بما أمرتهم به وانتهوا عما نهتهم عنه وقلوبهم مملوءة بالإيمان الصادق والعقيدة الصحيحة .

المســاواة

إن حق المساواة ناشيء من نسبة الفرد للمجتمع باعتباره عضوا فيه . له ا لحق فى التمتع بجميع مزاياه وعليه واجب الخضوع لأنظمته كسائر الأفراد، فكما أنه مساو لهم فى هذا الخضوع يجب أن يكون مساويا لهم فى التمتع بثمرات المجتمع لا يختلف عنهم إلا بمقدار ما يستحقه من هذه الثروة .

ولم يكن هذا الحق معترفا به قانونا حتى نهاية القرن الثامن عشر من الميلاد فقد كان لطبقة الأعيان دون العامة . وبعد الثورة الفرنسية اعترف بحق المساواة والحرية والإخاء لجميع الناس .

ولقد نبهت الشريعة الغراء على أن الناس كافة فى الإنسانية سواء ، وبرهنت على ذلك بأنهم جميعا مخلوقون من أصل واحد فقال تعالى : " يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ" وقال صلى الله عليه وسلم : " ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى " .

ومبدأ المساواة يؤدى إلى أن يحترم النـاس بعضهم بعضا ، ويصرموا حبل الازدراء والاحتقار فتبنى معاملاتهم على العدالة والمماثلة ويسود النظام ويعم الأمن؛ كما أن هـذا المبدأ يُشعر بنى الإنسان جميعهم بأن سبل المجد والشرف مباحة لكل قاصد، وأن التفاضل ليس بالحسب ولا بالنسب وإنمـا هو بالكمال العقلى والخلق وبذلك تتوق نفوسهم إلى الشرف والانتساب إلى الفضيلة .

وليس معنى المساواة أن توزع الثروة من أموال وأراض ومتاع وعقار على الناس بالسواء فلا يكون غنى وفقير ،ولا متمولون وعمال ، ويكون الكل شركاء متساوين

فى الرزق ، فإن توزيع الثروة بهذه الطريقة ضرب من الظلم ونوع من النظام الاشتراكى الوخيم العاقبة. فالمساواة التامة غير ممكنة وليست من العدل. قال تعالى :

« وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ » وقال تعالى : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا » .

فالناس متفاضلون فى الثروة والجاه والدرجات لتباينهم فى القوى العقلية والجسمية والخلقية ، وتنازعهم وسائل الرزق وأسباب المعيشة بحكم طبيعتهم واستعدادهم ، فمن الخرق أن يكونوا متساوين فى الأعمال والثمرات والأموال : وهل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ بل كيف يسوغ لفئة الكسالى والأغبياء والبله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان أن ينالوا من الثروة ما يناله المجدون الأكفاء والعاملون الأقوياء ؟ إنهم إن منحوا ذلك أساءوا استعماله ، وأضاعوه هباء ولم ينتفعوا بثمراته ولم يتمتعوا بخيراته بسبب قصورهم وتقاعدهم عن العمل .

على أن هذا الاختلاف بين الناس يبعثهم على الجد و يوقظ فيهم روح التنافس ، ويبث فيهم الأمل . وهذا هو سر ما نشاهده من النشاط المستمر فى جميع مرافق الحياة : فإن الناس جميعا على اختلاف أزمانهم وتفاوت درجاتهم فى الغنى والفقر وسائر وسائل الكسب يسعون سعيا حثيثا ليظفروا بالتمتع بالنعيم والطيبات من الرزق ، فإذا ما انقطع الأمل أو ذهب التنافس قل المجهود ووقف العالم عند حد الجمود، ولا يمكن أن يبقى أو يرقى . فالاختلاف فى الأعمال والثروة والمنزلة يؤدى إلى خير الإنسانية . ولذا كانت المساواة المطلقة فى كل شئ غير ممكنة ولا جائزة ، وليست من العدالة فى شئ .

وهناك أمور تكون فيها المساواة ضربا من العدل وعدم المساواة نوعا من الظلم ومن ذلك :

أولا — المساواة أمام القانون فلا فرق أمامه بين عظيم وحقير ، وكبير وصغير وغني وفقير ، بل الكل سواء : من ارتكب منهم إثما أو جرما عوقب على ما فعل من غير تفضيل لطبقة على طبقة .

فالقوانين الشخصية والمدنية والجنائية تجرى على الناس بدرجة سواء لا فرق بين أحد منهم ، لهذا كان واجبا عليهم أن يقدسوها ويجلوها و إلا انتشر الظلم والعسف وحلت الفوضى محل النظام وانطوت كلمة الحق واختلت أسباب الحياة .

وقصة جَبَلَةَ بن الأيهم (وهو آخر ملوك بنى غَسَّانَ) فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تدل على التشدد فى العدالة تثبيتا لمبدإ المساواة .

فقد أسلم جبلة واتفق أنه كان يطوف يوما بالبيت فداس أعرابى من فزارة طرف ردائه ، فلطم الفزاريَّ على وجهه لطمة شديدة فاستعدى عليه عمر فقال له عمر (رضى الله عنه) : دَعْه يقتص منك . فقال لعمر : وهل أستوى أنا وهو فى ذلك ؟ أنا ملك وهو سُوقة ! فقال له : إن الإسلام سوى بينكما . فقال جبلة أجلنِي إلى غد . فلما أصبح مضى إلى قيصر ملك الروم وارتد ، ثم ندم وقال :

تَنَصَّرَتِ الأشراف من عار لطمة ... وما كان فيها لو صبَرت لها ضرر
تَكَنَّفنِي منها لَجَـاج ونَخْـوَةٌ ... و بِعتُ لها العين الصحيحة بالعَوَر
فياليت أمى لم تلدنى وليتنى ... رجعت إلى الأمر الذى قاله عمر

ثانيا — المساواة فى الحقوق كحق الحياة وحق الحرية وحق الملكية ونحو ذلك ، فلكل إنسان من هذه الحقوق ما للآخر سواء بسواء . بمعنى أن له الحق فى أن يحيا ويعيش حرا وان يمتلك ، والمجتمع هو المسئول عن هذه الحقوق ، ولهذا جاءت القوانين الوضعية والشرعية بما يكفل المساواة فيها .

ثالثا — المساواة فى المناصب والوظائف : فليست هـذه وقفا على فئة دون أخرى ، بل ينالها كل من تتوافر فيه الشروط الموضوعة لها . أما عدم المساواة فيها فهو مناف لقواعد الدين ، وللمبادئ الدستورية الصحيحة ، وأصول المصلحة العامة التى لا تعرف وسيلة لتولى المناصب غير الجدارة والاستحقاق .

أما الاعتبارات الأخرى كالغنى والجاه والقرابة فلا دخل لها فى التفضيل، لأنها تناقض هذه القاعدة الطبعية،وتؤدى إلى نتائج ضارة . ولهذا نص الدستور المصرى فى مادته الثالثة فى باب حقوق المصريين وواجباتهم على (أنهم لدى القانون سواء وأنهم متساوون فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية ، وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة : لاتمييز بينهم فى ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين ، وإليهم وحدهم يعهد بالوظائف العامة مدنية كانت أو عسكرية) .

وقد قال الله تعالى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَـٰكُمْ) . فالدين الإسلامى قد أمر بالمساواة ، وعدم تفضيل أحد على الآخر إلا بالتقوى والعمل الصالح حتى أصبح كل المسلمين سواء .

الإسلام والشورى

حث الإسلام على الشورى ، وأرشد إلى التمسك بهـا ، فان من استشار ذوى الرأى والمعرفة فى فعل قصده فقبل المشورة منهم،واقتدى بآرائهم فيها قل أن يُخفق فى مسعاه ، ويَفوتَ مطلبه . فان أعجزه القدر فهو معـذور غير ملوم . ومن ترك المشورة وعدل عنها فلم يظفر بحاجته صار هدفا لسهام اللائمين ، ومضغة فى أفواه العاذلين . ومن أجل فضل الشورى ومزاياها الجليلة حث الدين عليها، فقال تعالى يمدح عباده الذين اتخذوا المشورة إماما لهم فى أعمالهم : (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَـٰوةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ) . وأمر نبيه عليه الصلاة والسلام بمشاورة أصحابه فقال : (وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مواطن

كثيرة لأصحابه : (أشيروا علىّ) . وقد شاور أصحابه فى حوادث كثيرة ، وقضايا متعددة : منها استشارته لما أراد مصالحة عُيَيْنَةَ بن حِصْن والحارث بن عوف — حين قصده الأحزاب يوم الخندق — أن يعطيهم ثلث أثمار المدينة ويرجعا عنه بمن معهما من غَطَفَان . فقال صلى الله عليه وسلم : حتى أشاور . فشاور سعد بن مُعاذ وسعد ابن عُبادة . فأشارا ألا يعطيهم شيئا فعمل بمشورتهما . وقال صلى الله عليه وسلم : (ماندم من استشار ، ولا شقى من استخار) . وقال أيضا : (المشورة حصن من الندامة ، وأمان من الملامة) . وقال على كرم الله وجهه : قلت يارسول الله : الأمر ينزل بنالم ينزل فيه القرآن ، ولم تمض فيه منك سُنة . قال اجمعوا له العابدين من المؤمنين فاجعلوه شُورَى بينكم .

ولا تظن أنك اذا استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأى غيرك فيمنعك عن المشاورة . فانك لاتريد الرأى للتجربة ولكن للانتفاع به ، وذلك أنخر لذكرك وأحسن عند ذوى الألباب لسياستك . وقلما رغب أحد فى المشورة وعمل بها إلا غَنِم ، ولا زَهِد فيها وأعرض عن قبولها إلا ندم .

ويشترط فيمن يستشار شرائط أربع هى : النصح والشفقة والعقل والتجربة :

وذلك لقول على رضى الله عنه فى بعض خطبه : أما بعد ، فإن معصية الناصح الشفيق العالِم المجرِّب تورث الحسرة وتُعْقب الندامة . أما كونه ناصحا فلأن الناصح يُمَحِّص الرأى قبل إبدائه . وأما كونه شفيقا فلأن الشفقة تحمل على النصح فتحمل على حسن التروى فى الأمر وإيقاع الرأى من تثبت واجتهاد . وأما كونه عالما ففائدته أنه يصيب بعلمه وجه المصلحة فى الأمر فان الجاهل فى الأمر أعمى لا يُبصر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (استرشدوا العاقل تَرْشُدوا ولا تَعْصُوه فتندموا).

وأما كونه مجربا فلأن التجربة أقوى شاهد على صحة ما يقوله العالم ولا يتم رأيه إلا بها ، فإن التجربة تبين وجوه المفاسد ووجوه الصواب ولهذا قيل : إياك

ومشاورة رجلين : شاب معجب بنفسه قليل التجارب فى غيره ، وكبير قد أخذ الدهر من عقله كما أخذ من جسمه .

فالسر فى تحبيب الشورى هو أن تتألف القلوب وتحرر العقول من الخطأ وتصل إلى الصواب وينفتح أمامها ما أغلق بهمه ويتضح ما أبهم أمره ، قال صلى الله عليه وسلم (إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياءكم سمحاءكم وأموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها) .

وما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه مع ما وعده من تأييده وتكفل به من إرشاده إلا لما فيها من الأسرار وما تحتوى عليه من الخير والفضل وما تؤدى اليه من النجح، مع اقتداء المؤمنين برسولهم فيها فتكون سنة متبعة فيهم . هذا إلى تطييب قلوب الصحابة والتنويه برفعة قدرهم ومعرفة درجات حبهم وإخلاصهم له بتمحيص الرأى والتنقيب عن السداد، وفى ذلك تعاون وتآزر واتحاد وبعث لروح المحبة والإخلاص بين المؤمنين وهدايتهم إلى أرشد الأمور التى فيها مصالحهم وسعادتهم .

ولقد أخذت الأمم الراقية بهذا المبدأ السامى فجعلت الشورى من أهم المسائل التى تُعنى بها فى إدارة شئونها العامة سياسة كانت أو اجتماعية أو اقتصادية وأخذت هذا المبدأ من الدين الإسلامى القويم . وهذه مجالس الشورى والنواب والشيوخ إنما تعمل بالشورى فى تدبير الأمور وسن القوانين وتمحيص الرأى تمحيصا فلحصا قبل تنفيذه . فما المشروعات والنظم على اختلاف أنواعها إلا ثمرة طيبة من ثمرات المشورة وبها انتظمت الدول وعاش الناس آمنين فى ظل الدستور العادل .

الإسلام والعـــلم

إن الإسلام دين عقل وعلم ، فهو قبل أن يكلف أتباعه تحصيل أى غرض من أغراض الدنيا يكلفهم أن يكونوا عقلاء صحيحى الفهم ، يتدبرون الأمور قبل الشروع فيها ، ويقلبون وجوه الرأى فى مواردها ومصادرها ، كما يكلفهم أن يكونوا علماء عارفين بأسباب المصالح وطرق المنافع واقفين على الحقائق الكونيـة ملمين بتفاصيل التجارب العملية التى اهتدى إليها البشر فى سابق أدوارهم ومختلف أطوارهم مما يتعلق بتصحيح العقائد والعبادات ، وتقويم الأخلاق والملكات ، وإتقان أمر المعايش والمعاملات ، وترقية شأن الصناعات ، والتجارات وتحسين سائر مقومات الحياة .

وقد رفع القرآن من شأن العلم ونوَّه بمنزلته بما لم يسبقه اليه سابق من الكتب السماوية فقد قال تعالى :

« هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ » .

بل إذا تدبرنا أول آيات القرآن نزولا وجدناها تحض على العلم وترفع من مكانته قال تعالى :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

وقال تعـالى « نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ » .

فقد نوه فى الآيتين بشأن القلم والكتابة والعلم والتعلم . هـذا الشأن من شؤون الحياة ومصالح الدنيا هو أول ما فاجأ به القرآن البشر المخاطبين وأوقعه فى أذهانهم . أفلا يكون معنى ذلك أن الإسلام دين علم وأنه لا يرضى للمنتسبين إليه إلا العلم .

ولما أراد الله أن يلقن نبيه صلى الله عليه وسلم دعاء يدعو به لقنه أن يطلب في دعائه المزيد من العلم إذ قال له : (وقل رب زِدنِي عِلما) .

والعلم إذا أطلق فى لسان الشرع كان المراد به العلمَ النافع الموصل إلى سعادتى الدنيا والآخرة ، ذلك العلم الذى يتعلق بمصالح الإنسان ، وله الأثر البين والنفع الظاهر فى إتقان تلك المصالح وإحكام أمرها وتوثيق عراها .

كذلك حض الإسلام على فهم مسائل العلم فهما صحيحا فقال صلى الله عليه وآله وسلم : (كونوا لِلعِلمِ وُعاةً ولا تكونوا له رُوَاةً) أى لا تعتمدوا فى العلم على مجرد الرواية والنقل من دون أن تعوه وتحفظوه وتتدبروه لتعرفوا طريق المصلحة والمنفعة منه .

والعلم لا ينمو فى نفس صاحبه ولا يثمر إلا بالعمل والممارسة والتطبيق ، فإن العمل بالعلم على هذه الصورة يزيده ثباتا ورسوخا ، ويوصل إلى السعادة المرجوّة .
قال صلى الله عليه وسلم : (من عمل بما علِم أورثه الله عِلْمَ ما لم يعلم) .

وقد حذر الشرع من العلم الوهمى الذى لا ينفع ، وحذر من دعاته وحَمَلَتِهِ ، ونبه الناس على غوائلهم ، ومغبة الانخداع بهم ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : (ويل لإمتى مِن علماءِ السوء) وعلماء السوء هم الذين يحللون الحرام ، ويحرمون الحلال ، أو يتخذون العلم حِبالة لمنافعهم الخسيسة ، أو وسيلة للإضرار بالناس ، أو يتعلمون من العلوم أوهاما يناخون دونها ليستفيدوا من ورائها جاها أو حطاما ، وغير هؤلاء ممن اتخذوا العلم أداة شر وضر و إفساد .

ومما يدل على مكانة العلم الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فإذا هو بمجلسين : فى أحدهما قوم يذكرون الله ، وفى الآخر قوم يتفقهون فى الدين ؛ فقال عليه السلام : (كل المجلسين خير ، وأحدهما أحب إلىّ من صاحبه ،

أمّا هؤلاء فيذكرون الله ويسألونه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل ، وإنما بعثت معلما ، بجلس إلى مجلس الفقه) .

وروى عُنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (مَن ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حقه ووضعه فى غير منزلته التى وضعه الله بها) حيث يقول :

« وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » .

وقال علىّ كرم الله وجهه فى وصف علماء الدين : (هم الأقلون عددا ، الأعظمون قدرا ، بهم يحفظ الله حجته حتى يودعوها نُظَراءهم ، ويزرعوها فى قلوب أشباههم) .

وقال فى ذم الذين لا يعملون بعلمهم : (ما قطع ظهرى فى الإسلام إلا رجلان : عالم فاجر ، ومُبتَدِع ناسك . فالعالم الفاجر يزهد الناس فى علمه لما يرون من فجوره ، والمبتدع الناسك يرغب الناس فى بدعته لما يرون من نُسُكه) .

والعلم هو طريق السعادة للدارين ، ومبعث مجد الأمم ، وينبوع ثروة الشعوب . وما أذل الشرقَ بعد العز ، وأفقر سكانه بعد الغنى ، إلا إهمالُ أهله للعلوم ، واسترسالهم فى الشهوات . ولو أن أمم الاسلام طرحت دواعى اليأس ، واستيقظت من غفلتها ، واسترشدت بالقرآن ، فنهضت نهضة رجل واحد فى سبيل تعميم العلم والتعليم على طرقه النافعة ، وأصوله المرغوبة لمثل هذا العصر : عصر الاختراع والإبداع ، عصر العلوم والمعارف — لو فعلت كل ذلك لوصلت بلا ريب إلى مبتغاها وإعادة سالف مجدها .

وإن العلم بلا عمل لا يغنى فى الحياة شيئا ، بل لا يكون العلم علما إلا إذا ظهرت آثاره ، وإنما تظهر آثاره بالعمل . وأى فائدة من علم المؤمن فى دينه أن الصلاة

تنهى عن الفحشاء والمنكر إذا لم يصل فينتهى عن ذلك ؟ ومن علمه فى دنياه أن الزراعة مثلا من أسباب الحياة البشرية إذا لم يعمل بالزراعة ؟ وهكذا يقال فى كل علم من علوم الدين والدنيا .

الإسلام والمسئولية الشخصية

معنى المسئولية الشخصية أن يحاسَبَ الإنسان على أعماله ، ويتحمل نتائجها وعواقبها ، ويشترط فى إلقاء التَّبِعة على الشخص ما يأتى :

أولا — الحرية والاختيار فى العمل ، فإذا لم يكن المرء حرا مختارا فيما يعمله فلا مسئولية عليه ، فالمكرَه على عمل من الأعمال ليس عليه إثمه ، إذ لا إرادة له فى حالة الاستكراه ، ولذا قال تعالى : ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. فقد جاء الإسلام صريحا فى عدم المؤاخذة على الأعمال غير الإرادية . ومثل ذلك الرقيق المستعبَد الذى سُلِبت حريته وإرادته فصار لا يملك لنفسه أمرا ، فهو ممن لا مسئولية عليهم فى أمر من أمور الدين والدنيا إذا أجبره سيده على فعل من الأفعال ؛ لأن الإجبار فى هذه الحالة قد أكرهه على تنفيذ ما يؤمر به فلا سلطان له ولا إرادة، ومثل ذلك المجانين ومن فى حكمهم فقد حيل بينهم وبين اختيارهم ؛ لأن عقولهم سُتِرت وتبع ذلك سلب إرادتهم فلا يُلزمون نتائج اعمالهم إن صح تسميتها بالأعمال .

ثانيا — يشترط كذلك فى تحقيق المسئولية توافر العقل ؛ ليستطيع الشخص التمييز بين الخير والشر . فإذا كانت الأعمال صادرة من شخص لا يعلم وقت عملها ماذا يعمل كالمجنون ومن فى حكمه فليست له جريمة وإذًا فلا عقوبة عليه .

ومن أجل هذا سقطت التكاليف الشرعية عن كل من سُلِب عقله وحرم إرادته ؛ فلا يقع طلاق المجنون ، ولا المكرَه ، ولا يصح منهما عقد الزواج ، وتسقط عمن فقد عقله كل العبادات والتكاليف الدينية، ولا يحاسب على معاملاته إن خيرا وإن شرا .

ثالثا — النيـة . فلا ينبغى أن يثاب الإنسان أو يعاقب على ما فعل ، بل على ما قصد أن يفعل . فلا يعتد الشرع بغير النية ؛ لأنها وحدها منشأ ما للعمل من قيمة على حد قوله صلى الله عليه وسلم : (إنمـا الأعمال بالنيات ، وإنـما لكل امرئ ما نوى ؛ فمن كانت هجـرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه) .
وقال تعالى :

« لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ » .

وأبان ابن مسكويه فى كتابه " تهـذيب الأخلاق " أن المعوّل عليه إنمـا هو القصد والنية حيث قال : " إن أعمال الخير ومظاهر الفضيلة قد تجئ على يد من ليس بخيِّر ولا ذى فضيلة ؛ لأنه لم يقصد إليها بقلبه ونيته ؛ فلا ينعت بالعفة مثلا من أعرض عن الشهوات من المـآكل والمشارب وغيرها من اللذات انتظارا لأكثر ممـا يحضره منها أو جهلا بها أو لمرض عارض" . إلى آخر ما أورده فى هذا الباب . والرجل الذى يقف مالا على عمل خير فيتولاه قوم سفهاء ، وينفقونه فى غير وجهته ، ويستعينون به على المفاسد والشرور يحكم على عمـله بأنه خير ، ولا ينظر إلى نتيجة العمل ما دامت النية عمل الخير .

وهناك من الأمور ما تسلب فيه إرادة الإنسان مؤقتا كما فى حالات الغضب والنسيان والذود عن العرض والنفس ، وقد تكفل الفقهاء بوضع قيود وشروط للخطأ والنسيان والحالات التى تسلب فيها الإرادة مؤقتا ، فلم يترك الدين هذا الباب مفتوحا على مصراعيه يلجه كل من شاء أن يتخلى عن مسئوليته . فمن النسيان والخطأ والاضطرار ما يُعْذَر صاحبه فيه لقوله صلى الله عليـه وسلم : (رُفِـع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه) . ومن هذه الأحوال ما لا يعذر فيه المرء ، بل تلحقه المسئولية والملامة والمؤاخذة . ألا ترى أن من رأى نجاسة فى ثوبه فأخَّر إزالتها إلى أن نَسىَ

فصلى وعليه ثوبه فانه يعد مقصرا إذ كانت تلزمه المبادرة الى إزالتها وهو فى حالة انتباه ويقظة قبل أن تطغى عليه أمواج النسيان . ومن الناس من ابتلى بالسهو والنسيان فتفوته أعمال كان حقا عليه أن يعملها . فربما علم أن جماعة يأتمرون على تدمير مصنع أو نسف قطار فيه خلق كثير انتقاما من رب المصنع أو من حاكم غاشم فى القطار ثم نسى كعادته أن ينبه على درء البلية فتلق عليه التبعة و يؤاخذ على عدم اتخاذه الوسائل العاجلة التى تدرأ هذا الخطر وعلى عدم عنايته بالشىء وترديده فى الذاكرة ليستقر فى النفس . ومثل ذلك أعمال الشر التى تقع فى حال السكر ، لأن السكران جعل من سكره سببا فى اقتراف الجريمة ولم يتخذ الوسائل التى تجعله موفور العقل والإرادة ، فبلغ بسبب سوء تصرفه حالا أصبح فيها مسلوب الإرادة.

ومثل ذلك من ابتلى بمرض عصبي وأصيب بحدة الخلق وسرعة الغضب بحيث لا يستطيع ضبط نفسه عند سماع كلمة تؤلمه أو إشارة تؤذيه ، فانه اذا أكثر من الاختلاف الى الأندية وغشيان المجالس تلق عليه التبعة و يؤاخذ على بوادره وعلى ما يصدر منه ، وإن كانت هفواته لم تصدر بارادته . ذلك لأنه وضع نفسه بارادته موضع الخطأ والخروج عن الجادة . ولا يصح كذلك تحميل المكره تبعة العمل الذى أكره عليه إذا لم يستطع التخلى عنه إذ لا إرادة لديه .

أثر الشعور بالمسئولية

إن الشعور بالمسئولية من أجل الصفات التى يتمتع بها الإنسان إذ يدفعه إلى إسعاد نفسه وغيره و يبعده عن النقائص والفجور والشره والسفه والغدر والخيانة والخبث وضعف النفس . ويزداد هذا الشعور قوة فى الإنسان كلما اتسعت مداركه ونضجت تجاربه ونما عقله وقوى إيمانه ، لأن الآثام والجرائم والخطايا تنشأ فى كثير من الأحيان عن ضيق المحيط الذى يعيش فيه الإنسان ، فان من ضاق محيطه حتى لا يرى إلا شخصه وأقرب الناس اليه كان عرضة لارتكاب الجريمة عند ما تسوّل له نفسه أن له نفعا فى ارتكابها ، فكثير ممن يسرقون يضيق نظرهم و يضعف دينهم فيخيل اليهم أن السرقة تزيد فى خيرهم وخير أُسَرِهم

ويعزب عنهم ما يحيط بالمسروق منه وأسرته وأمته من الضرر، وقد يرتكب الجريمة لأنه وقت ارتكابها كان على بصره غشاوة واستولى على قلبه الشيطان وضعف لديه الوازع الدينى ، فاذا ما وقعت الجريمة ندم وتجلى له ضلاله وعماه . كما أن ضعيف التمييز ناقص العقل يرى أن مصلحته ومصلحة أمته تتناقض فيفضل مصلحته على مصلحتها، ولكن من كان يرجع الى عقل أصيل ورأى حصيف يرى أن مصلحته فى مصلحة أمته وضرره فى ضررها . ولما كان الإنسان مسئولا عن أعماله كان لمسئوليته أثر كبير فى حياته إذ تحفزه الى عمل الخير مهما يكلفه من مشقة لينال جزاءه الأوفى على ما فعل ، كما تُقْصيه عن عمل الشر خشية العقوبة فى الدنيا وفى الآخرة ، لأن عمل الخير لا بد أن يرتد الى عامله خيرا كما صدر منه ، والجريمة تلحق بصاحبها الأذى عاجلا فى الدنيا وآجلا فى الآخرة على حد قوله تعالى :

« فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

وتتدرج المسئولية من شعور المرء بمسئوليته عن نفسه وأقرب الناس اليه الى شعوره بمسئوليته عن المجتمع الإنسانى . وأجل مثل فى الشعور بالمسئولية ما روى عن أَنَس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ليلة من الليالى يطوف بالمدينة ويتفقد أحوال المسلمين فرأى بيتا من الشعر مضروبا لم يكن قد رآه من قبل فدنا منه، فسمع أنين امرأة ، ورأى رجلا قاعدا فقال : مَنِ الرجل ؟ فقال له : رجل من البادية قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله . فقال عمر : ما هذا الأنين ؟ قال : امرأة تتمخض قد أخذها الطلق قال : فهل عندها أحد ؟ قال : لا . فانطلق عمر والرجل لا يعرفه حتى جاء الى منزله . فقال لامرأته أم كلثوم بنت علىّ بن أبى طالب : هل لك فى أجر قد ساقه الله اليك ؟ وقص عليها الأمر ، فأجابت : إن شئت . قال : فخذى معك ما يصلح للمرأة من الخِرَقِ والدهن وأْتِ بِقدر وشحم ودقيق فجاءت به فحمل القدر

ومشت خلفه حتى البيت ، فقال ادخلى إلى المرأة . ثم قال للرجل أوقد نارا . ففعل فجعل عمر ينفخ النار و يضرمها والدخان يخرج من خلال لحيته حتى أنضج مافى القدر وولدت المرأة ، فقالت أم كلثوم رضى الله عنها : يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام . فلما سمعها الرجل تقول يا أمير المؤمنين ارتاع وخجل ، وقال واخجلتاه منك يا أمير المؤمنين أهكذا تفعل بنفسك ؟ قال يا أخا العرب من وَلِىَ شيئا من أمور المسلمين ينبغى له أن يطلع على صغير أمرهم وكبيره فانه عنه مسئول ومتى غفل عنه خسر الدنيا والآخرة . ثم قام عمر وأخذ القدر وحملها إلى باب البيت وأخذتها أم كلثوم وأطعمت المرأة . فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم فقال عمر للرجل : قم إلى بيتك وكل ما بقى فى البرمة . وفى غد ائت إلينا فلما أصبح جاء فجهزه بما أغناه به وانصرف .

عناية الإسلام بشأن المرأة

كان مقام المرأة قد انحط كثيرا فى المجتمع الإنسانى عند أكثر الأمم القديمة فعاملوها معاملة سَقَطِ المتاع تباع وتشترى فى الأسواق ، بل سمّوها رجسا من الشيطان وحرموها كل شىء سوى تنظيم البيت وتربية الأطفال ، وأباحوا للرجل التزوج بأى عدد يشاء من النساء ، وظلت المرأة مجهولة القدر رازحة تحت أعباء ظالمة لم تُنقِها عن كاهلها إلا الشريعة الغراء إذ جاء منقذ المرأة النبي العربى صلى الله عليه وسلم بكتاب كريم يقول : (ولهن مِثلُ الذِى عليهِن بِالمعروفِ) . ولقد سار أتباع النبي الكريم على احترام المرأة و إحلالها المكان اللائق بها فسموا عائشة سيدة نساء أهل الجنة ، فدلوا بذلك على أنها كانت مثلا أعلى للمرأة فى الصلاح والعفاف والتقوى ، وجاء بعدها كثير ممن نسجن على منوالها وأحرزن فى مقام الفضل المقام الأسمى .

وقد أنصفت الشريعة السمحة المرأة وبوأتها مكانا ساميا بعد أن كانت فى الصين حبيسة ، وفى الفرس مجهولة القدر ، وفى مصر حقيرة ، وفى أوربا

مملوكة ، وفى البلاد العربية متاعا يورث ، فمنحتها حقوقا لم تعترف ببعضها البلاد الغربية إلا فى القرن التاسع عشر بعد كفاح شديد ؛ وإليك البيان :

أولا — كان العرب يئدون البنات فجاء الإسلام بتحريم وأدهن وبذلك أعطى المرأة حق الحياة قال تعالى :

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ . أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * »

ثانيا — كانت العرب لا تورث النساء ولا الصبيان من أبناء الميت ، وإنما يورثون من يلاقى العدو ويقاتل فى الحرب ، فشرع الإسلام توريث المرأة وكان ذلك شديدا على نفوس العرب ، فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما نزلت الفرائض التى بين الله فيها أنصبة البنت والزوجة والولد والأبوين كرهها الناس وقالوا : تعطى المرأة الربع أو الثمن وتعطى البنت النصف ويعطى الغلام الصغير وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم أو يجلب الغنيمة ؟

ثالثا — كان الجاهليون يرثون النساء كرها بأن يجىء الوارث ويلقى ثوبه على زوج مورثه إن لم يكن منها ثم يقول ورثتها كما ورثت ماله ، فيكون أحق بها من نفسها إن شاء تزوجها بلا صداق ، أو زوجها واستوفى صداقها لنفسه ، أو حرم عليها الزواج ليرثها إذا ماتت ، فمنعت الشريعة الإسلامية هذا الحق الباطل والإرث الظالم بقوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا »

رابعا — كان العرب يَعْضُلون النساء بضروب من الظلم ، فيمنع الوارث امرأة مورثه التزوج إلى أن تعطى ما أخذت من الميراث ، ويحجب المطلق مطلقته الى

أن يأخذ ما يريده منها ، ويمتنع الزوج اذا كره زوجته وأحب فراقها عن تسريحها ويسىء عشرتها حتى تفتدى نفسها بمهرها لحظرت الشريعة الغراء ذلك كله بقوله تعالى :

« وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَاءَاتَيْتُمُوهُنَّ »

خامسا — كانوا يسيئون معاشرتهن فلا يعدلون بينهن فى مبيت ولا نفقة فأمر الله بالإنصاف بينهن فى ذلك بقوله تعالى :

« وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» وقوله تعالى : « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَٰحِدَةً »

سادسا — كانوا اذا رغب أحدهم فى التزوج بأخرى رمى زوجته بالفاحشة لتفتدى بما آتاها من المال فيسىء اليها فى عرضها ومالها ثم ينفق ما أخذه منها على من رغب فيها فحرمت الشريعة عليهم البغى والعدوان .

سابعا — كانوا يعدون النساء من الأمتعة فيتصرفون فيهن بما أرادوا وأراد ظلمهم ، فكان الزوج ينزل عن زوجته لغيره اذا شاء بعوض أو غير عوض رضيت أم لم ترض .

من أجل ذلك كله استنقذت الشريعة العادلة المرأة من هذه البلايا وجعلتها سيدة محترمة، بل راعية مسيطرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كلكم راع ومسئول عن رعيته . فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته . فكلكم راع ومسئول عن رعيته) .

ومن تأمل هذا الحديث الشريف وجد مكانة المرأة سامية وسيطرتها كبيرة .

ومن محاسن الشريعة الإسلامية أنها نظرت بعين الرأفة والرحمة إلى ضعف المرأة الطبعى وتميز الرجل عليها بالقوة والقدرة على العمل فقضت عليه بأشق الحقوق وأعظمها وهو إيتاء النفقة والقيام بحاجات المرأة ولم تكلفها عمل شيء حتى إرضاع ولدها ، وقضت عليه بحفظها من مواقع الآفات وألزمته صداقا يؤديه قبل البناء بها إلا إذا اتفقا على تأخيره .

ومن تمام عطف الشريعة الإسلامية على المرأة أنها لم توجب عليها مقابل ذلك من الحقوق إلا شيئا يسيرا، فقضت عليها بألا تأذن فى بيت الرجل لمن لا يرضاه ، ولا تخرج من المنزل بغير إذنه إلا لضرورة شرعية . فكل ما وجب عليها للزوج فهو تَرْكٌ ليس فيه عناء بل فيه صون شرفها ورفعة منزلتها .

ومن فضل الشريعة الإسلامية على الزوجة أنه إذا ولد للزوجين أولاد فنفقتهم واجبة على أبيهم دون أمهم ولو كانت فائقة فى اليسار . وجلى أن النفقة على الأولاد واجب شاق وبخاصة فى مثل هذا الزمان الذى تضاعفت فيه النفقات المنوعة .

ومن عناية الشريعة بالزوجة المسلمة أنها لا تفقد شخصيتها من جراء قرانها، بل تظل متمتعة بجميع الحقوق التى يتمتع بها كل حر مستقل الإرادة . فهى صاحبة السلطان على ثروتها تتصرف فيها كما تشاء فى حدود القانون . فإن كانت تاجرة فربحها لنفسها من غير أن يكون لزوجها أقل نصيب فيه ، وإذا مات الزوج أخذت نصيبا فى تركته (وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ... الآية) .

ثامنا — قررت الشريعة الإسلامية للأم أنه إذا مات ولدها فلها نصيب معين من ميراثه لتأمن شر الحاجة فى شيخوختها . قال تعالى : (فلِأمه السدس) .

تاسعا — نظر الإسلام إلى المرأة نظره الى الرجل باعتبارها عضوا فى المجتمع الإنسانى فمنحها حقوقا وكلفها واجبات قال الله تعالى :

« وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً » وقال تعالى : « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ » .

وساوت الشريعة الإسلامية بين الرجل والمرأة فى المعاملات المالية والعقوبات وفى طلب العلم أو الندب اليه ، وفى كل ما فيه صلاح النفوس والعقول والأبدان وسلامة الدين ، وأباحت لها طلب الرزق الحلال إذا لم يكن لها من يعولها دفعا لحاجتها وصونا لشرفها ولم تفرضه عليها عند وجود العائل .

وصفوة القول أن الشريعة الإسلامية منحتها مامنحت غيرها من الأفراد فأعطتها مطلق الحرية فى التصرف فى ثروتها كما يتصرف أخوها وزوجها وأبوها ، وجعلتها سيدة تملك وتعتق ، ولها حق التعاقد والتعاهد مع من تشاء ، وأن تكون وكيلة عن غيرها فى الخصومات .

مما تقدم يتبين أن الشريعة الإسلامية تكفلت بالمرأة بنتا وزوجا وأما وحاطتها بكثير من العدل والعطف والرحمة .

أساس تكوين الأسرة

قد وُجدت الأسرة على وجه البسيطه منذ الإنسان الأول وكان له أولاد وذرية. فالأسرة هى الجماعة الطبيعية الأولى المكونة من الأبوين وأولادهما وهى أساس الجماعات كلها بين الناس . وقوة الأمة أو الجماعة مستمدة من قوة الأسرة ،

فما الأمة إلا مجموعة من الأسر إن كانت قوية بروحها وأخلاقها كانت الأمة قوية كذلك وإذا كانت الأسرة ضعيفة فى أخلاقها غير متمسكة بدينها كانت الأمة ضعيفة بعيدة عن الأخلاق . وتتكون الأسر من روابط أربع وهى :

أولا — رابطة الزوج والزوجة ، ويجب عليهما القيام بالواجبات الضرورية لسلامة الأسرة وكرامتها ، فكلاهما مطالب بالأمانة التى هى روح الزواج وعماده وأس السعادة النفسية والمودة والرحمة . وكل خيانة تصدر من أحد الزوجين تكون شرا مستطيرا وخروجا على الشرع ، لأنها تفسد النسل وتكدر صفو المنزل وتدعو الى الشقاء والخراب . والزوجان مطالبان بالأمانة فى كل الشئون الأسرية بقدر ماهما مطالبان بالأمانة فى العرض وعفة النفس .

ومن ألزم الواجبات المشتركة بينهما التعاون فى أمور العيش والشئون الاجتماعية الحيوية بقدر الإمكان . أجل إن أمور النفقة المنزلية من الواجبات على الزوج ولكن الزوجة مطالبة بما يحفظ عليه ثروته وينميها وبما يستعين به وقت الحاجة ، وليس التعاون بينهما مقصورا على المساعدة المادية ، بل إن كليهما مطالب بالتعاون الأدبى والعقلى . فيجب أن يكون للمرأة رأى فى معيشة بيتها وتدبير ثروة زوجها حتى تكون له المعينَ القوى لا بالتدخل فى دقائق مهنته ، بل بابداء الرأى والإرشاد المعقول والتيقظ وضبط الميزان المنزلى . وتعويد المرأة مثل هذه الشؤون لا يفيدها من حيث كونها زوجة وأما فحسب ، وإنما يحتل أيضا جزءا من تفكيرها واهتمامها ويشغل بعض فراغها فلا تسرف إسرافا فاحشا بالتبرج والزينة والأزياء — فالتعاون بين الزوجين محقق مصالحهما الذاتية على أكمل وجه تتطلبه الحياة .

وعلى الزوج واجبات خاصة به ، منها حماية زوجته وبيته من كل ما يضرهما حسا ومعنى ، فلضمان راحة أسرته يجب أن يكون الزوج المرشدَ الأمين والناصح الكريم والحامى المخلص . وليس معنى هذه الحماية مقصورا على الذود عن المرأة وحياتها فقد أصبح هذا ميسورا بفضل استتباب الأمن ، وإنما تقضى هذه الحماية ذلك الأمر

الدقيق المعنوى من صيانتها من كل ما يَثلِم الصيت ويخدش الشرف . وكذلك هو مطالب بحمايتها من الجهل إذا كانت جاهلة و إنقاذها من الأفكار السيئة التى تهاجمها بحكم السن أو البيئة أو ضعف التربية .

وتنحصر واجبات المرأة الخاصةُ بها فى إدارة شئون البيت وتجنب الجهاد خارجه لأنها خلقت لتكون ربة بيت فعليها تدبيره و إدارة كل مايتعلق به؛ ومن هنا يحدث التوازن الاجتماعى. فالرجل يسعى والمرأة تهيئ البيت وتقوى زوجها على تحمل آلام الجهاد فى سبيل بيتها وأولادها . ومن ألزم واجبات المرأة الوداعة و إطاعة الزوج والإصغاء إلى أوامره ونصائحه وتنفيذها بإخلاص فان كان فيها ماهو خطأ فلترشده إلى موضعه برفق ولين إلى أن تقنعه أو تقتنع .

ومحبة الزوجين أساس لكل نعيم وسعادة فى الحياة ، وأثرها واضح فى هدوء البيت واستقراره واطمئنان كل من فيه. وليس هناك مايحفظ قوام الأسرة — وهى تلك المملكة الصغيرة — مثل تبادل المحبة والإخلاص بين رب البيت وربته . هذا إلى أنهما بتبادل الاحترام والعطف يقدمان مثلا صالحا طيبا لأولادهما ويلقيان عليهما درسا عمليا فى الحياة. أما العشرة القائمة على البغض فتؤدى إلى خراب البيوت وربما دعت إلى خيانة أحد الزوجين أو كليهما ، وهناك الطامة الكبرى. وقد حددت الشريعة الحقوق والواجبات لكل من الرجل والمرأة تحديدا واضحا . وقد جاء فى الحديث الشريف أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (كل نفس من بنى آدم سيد : فالرجل سيد أهله والمرأة سيدة بيتها) . فانظر كيف جعل سيادة البيت للمرأة وخصها بها . و إذا كانت المرأة هى سيدة ورئيسة كان من أول واجبات الزوج أن يحسن اختيار تلك الرئيسة فيختارها من ذوات العقل والدين والمنبت الخصب لذريته . ومن ثم كان للمنزل والأسرة المقام الأول فى نظر علماء الاجتماع حتى جعلوا نظام الحياة المنزلية أساسا لنظام الحياة الاجتماعية فى الأمة كلها ، فاذا فسد النظام الأول فسد النظام الآخر وانحطت الأمة على أثره والعكس بالعكس . ولا غرو فالمنزل هو المغرس الأول

للذرية والأولاد ، ثم ينقلون منه إلى المغرس الثانى وهو المدرسة ، ومنها إلى ساحة التجارب والعمل والسعى فى خدمة أمتهم ووطنهم كما ينقل الفَسِيل من أرض إلى أرض ، فاذا طابت تربة المغرِس الأول (الأسرة) طابت إذ ذاك ثمار أبناء الأمة وغَزُرت ثمار عقولهم وأخلاقهم ، وإن خبثت تلك التربة خبثت الثمار وقبحت الاثار .

من أجل هذا كان أولَ واجب على الآباء حسنُ اختيار سيدة المنزل ، وقد ورد فى الأحاديث النبوية الحث على العناية باختيارها لِيَنْجُب أولادها ويطيب العيش معها. قال صلى الله عليه وسلم: (تزوجوا فى الحِجْرِ الصالح فإن العِرق دساس).

ثانيا — رابطة الأبوين وأبنائهما وبينهما واجبات الأبوة والأمومة، فيجب على الأبوين محبة أولادهما على السواء بلا تفريق ولا تمييز بين الصغير والكبير، والقيام بنفقاتهم وتعليمهم وتربيتهم كل لما أعد له باستعداده الفطرى مع إرشادهم إلى ما فيه صلاح أمرهم . وفى هذا المعنى ورد قوله صلى الله عليه وسلم : (ارجعوا إلى أهليكم فكونوا فيهم وعلموهم وبَرُّوهم) وقال صلى الله عليه وسلم : (أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم فإن أولادكم هدية إليكم) .

فالأسرة إذا مكلفة تربية الطفل وتهيئته جسما ونفسا وخلقا للقيام بوظائفه المختلفة فى خدمة قومه ووطنه . وإن العناية بالأولاد وتربيتهم هذه التربية الصالحة من أكبر واجبات الأبوين التى يفرضها الشرع ونظام الاجتماع عليهما كما أن إهمالهم والتفريط فى تربيتهم من أكبر الجنايات التى يمقتها الشرع ، فالواجب أن يعلموهم ما هم فى حاجة ماسة إليه ، وإن الإسلام ليقدر الاختلاف الزمانى قدره وما يناسب كل عصر من تهذيب وتعليم كما ورد فى الأثر (خَلِّقوا أولادكم بغير أخلاقكم فقد خُلقوا لزمان غير زمانكم) .

ويجب على الآباء أن يدرءوا عن أبنائهم العادات السيئة الضارة بالنفس والجسم مع إرشادهم إلى طريق الحياة وإعدادهم لها بالنصح والموعظة الحسنة والقدوة

الطيبة ، وتأديبهم عند الخطأ وتشجيعهم على الفضائل مع التسوية بينهم فى العطايا وأنواع البر واللطف ذكورا وإناثا خشية التنافس والتحاسد بين الأولاد، فقد جاء الإسلام هادما ما كان عليه أهل الجاهلية من هضم حق الأنثى وإذلالها والتفريط أحيانا فى حياتها، فكانوا إذا ولدلأحدهم أنثىاكفَهَرَّ وجههواستخفى عنأعين الناس حياء وخجلا ثم فكر كيف يتخلص منهذا الضيف الثقيل: أيصبرعليه أو يئده تحت التراب ، فجاء الإسلام ناعيا عليهم حالتهم هذه ورفع مقام المرأة ، وأوجب العناية بها وإعطائها حقها من الوجود وحظها من الحقوق .

ومما قاله صلى الله عليه وسلم فى هذا المعنى : (لا تَكْرَهوا البناتِ فإنهن المؤمنات الغاليات) .

ومما نبه إليه الإسلام من أمر تربية الأولاد ألا يتشاءم الوالد بأحد أولاده، ولا ييأس منه إذا رآه عنيدا شرسا ذا شره وبطر ، فقد يتحوّل كل هــذا فيه إذا أحسنت تربيته إلى أخلاق فاضلة كالشجاعة والثبات وقوة الإرادة وكبر العقل والشمم وطلب المعالى . ومما ورد فى فضل الولد قوله صلى الله عليه وسلم : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له) .

ولقد أخطأ أفلاطون حين ظن أن الحكومة يمكنها أن تقوم مقام الأسرة فى شئون تربية الأطفال ؛ لأن الحكومة ليس عليها إلا مسئولية واحدة هى حماية الجماعة ، والمساعدة على نشر التعليم ، ومنع المذاهب الضارة للنظام والأخلاق .

ثالثا — رابطة الأبناء بالأبوين ، وبينهما واجبات البنوّة ؛ فيجب على الأبناء محبة الوالدين ، واحترامهم ، وإطاعتهم ، والإغضاء عن عيوبهم ، والاعتراف بجميلهم ، وأن يعولوهم فى شيخوختهم ، ويقوموا بحاجاتهم . وقد وجه الدين الإسلامى نظر الأبناء الى حقوق الوالدين فقال صلى الله عليه وسلم : ” رضا الرب

فى رضا الوالدين ، وسخطه فى سخطهما ". وقال : " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ". وقال تعالى :

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ».

أى ووصيناه بأن يحسن إليهما إحسانا يكافىء حقهما وفضلهما عليه .

وقال تعالى :

« وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ »

فقد نهى الولد عن الإساءة إلى والديه حتى فى قول (أف) فما بالك بغيرها . ومن أكبر المعاصى عقوق الوالدين . قال صلى الله عليه وسلم " كل الذنوب يؤخر الله ما شاء منها الى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فان الله يعجله لصاحبه فى الحياة الدنيا قبل الممات ".

رابعا — رابطة الإخوة بعضهم ببعض ، وبينهم واجبات الأخوة ؛ فمنها : المحبة والوفاق بتبادل المساعدة ، والثقة ، والإخلاص بين الجميع ، وقيام الإخوة الكبار مقام الوالدين فى رعاية الصغار ، ويجب على الإخوة ما يجب بين الأصدقاء من حيث التضحية ، وإنكار الذات ؛ فلا مناهضة على المنافع والحقوق ، ولا منازعة أمام القضاء .

ولأنواع القرابة الأخرى واجبات مفروضة كاحترام الأعمام والأخوال ، واعتبار أولادهم فى مرتبة الإخوة ، وكالتأدب بأكمل الآداب مع الأصهار. ومن مجموع الأسر تتكون القبيلة الواحدة التى يربط أفرادَها بعضَهم ببعض رباطُ القرابة والنسب والدم . ومن مجموع القبائل تتكون الأمة ؛ فما الأسرة إلا نواة للمجتمع ، فان صلحت النواة صلح المجتمع وإلا ساءت الحال .

وقلما يخلو أرباب الأسر من وجود نساء أو أيتام يعيشون فى كنفهم ، والواجب العناية بهؤلاء النساء والأيتام ، فقد ورد فى الشرع ما يحتم ذلك ، قال صلى الله عليه وسلم : " اتقوا الله فى الضعيفين : المرأة الأرملة ، والصبي اليتيم " فان اليتيم معرض للضياع فى تربيته وآدابه ، وفيما يملك من مال ونشب وعقار ، فاذا كفله كافل فرباه وأدبه ، وصان ماله ووفره له حتى بلغ أشده ونزل بنفسه إلى ساحة العمل والسعى — كان ذلك الكافل كأنما أحيا اليتيم بعد الموت ، وتلافى سعادته بعد الفَوت .

مما تقدم يتبين أن الأسرة تقوى وتضعف تبعا لأفرادها . فلو قويت روابط الأسرة سادت عاطفة التضامن والمحبة بين أفرادها ، وقاموا بالواجبات الأسرية المختلفة التى تحفظ كِيانها ، وتصون بنيانها .

الزواج ومشروعيته

الزواج رِباط شرعى يجمع بين الرجل والمرأة ، وهو اول رباط فى العشرة ، وقد جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من سننه فقال : (الزواج من سنتى ومن يرغب عن سنتى فقد رغب عنى) والزواج أفضل ما يحفظ به قوام المجتمع ، فقد جاء فى الحديث : (من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله فى الشطر الثانى) .

وفوائد الزواج فى المجتمع ما يأتى :

أولا — إيجاد الولد بقاء للنسل وحفظا للجنس، وهو الأصل فى حكمة الزواج حتى لا يخلو العالم من جنس الإنس قال عليه السلام : (تناكحوا تناسلوا) وقال تعالى : « وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ » .

ولمراعاة هذا السنن الإلهى والواجب الطبعى لم يرد فى أحوال المسلمين ولا فى شريعتهم أمر الرهبانية أو العزوبة الدائمة إلا للعذر الشرعى .

ثانيا — الحاجة الطبعية ، حتى تُكسَر الشهوات وتحصَّن النفوس وتُلْزَم العفة المطلوبة شرعا ؛ ففى الزواج صيانة النفوس من الوقوع فى فساد الأخلاق والموبقات المفسدة .

ثالثا — إدخال الراحة على النفس والهناءة والسعادة وترويح القلب حتى لا تنصرف حواس الإنسان عن حلاله وحتى ينشط ويتفرغ لعمله المعاشى فى نهاره والقيام بتكاليف الحياة المطلوبة ، فالائتناس بالزوجة استراحة مسنونة .

رابعا — تدبير المنزل من الطبخ واللباس والفرش والكنس وتنظيف الأوانى وتهيئة كل مطالب البيت وكذلك تربية الفتيات تربية منزلية صحيحة بتعليمهن القيامَ بواجباتهن المنزلية عند ما يصرن زوجات لرجال الأمة . قال عليه الصلاة والسلام : (من كان له ثلاث بنات فأنفق عليهن وأحسن اليهن حتى يغنيهن الله عنه أوجب الله له الجنة ألبتة ألبتة) ومن الإحسان إليهن حسن تربيتهن .

خامسا — مجاهدة النفس وحثها على زيادة التنشيط فى السعى على الأرزاق والكسب الحلال . وفى الحديث : (كلكم راع ومسئول عن رعيته) .

من أجل ذلك شرع الله الزواج ووضع له نظما بها يحفظ النسل ويربى أحسن تربية على وجه يكفل للعالم سعادته ويوفر عليه راحته ويقيه ما لا يحصى من المضار لو كان الاختلاط الجنسى مبنيا على الشيوع لا على الاختصاص .

وقد حض الإسلام على الزواج ورغب فيه وجعله من آياته . قال الله تعالى : « وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً »

ومن أحكام الزواج ما يأتى :

(١) به تثبت حرمة المصاهرة .

(٢) ويجب للزوجة المهر فى ذمة زوجها .

(٣) يكلف الزوج الإنفاق على زوجته .

(٤) إذا مات أحد الزوجين ورثه الآخر.

وبالجملة ما يترتب لكل من الزوجين على الآخر من حقوق الزوجية التى أمر بها الشرع الحكيم .

١ — إباحة تعدد الزوجات :

انحى كثير من أعداء الدين وخصومه ، وممن جهلوا حكمه وأسراره ، على إباحته تعدد الزوجات ورموه بالقسوة ، ولو أنهم تدبروا الأمر ، وفكروا مليا فى الأسباب التى تبيح تعدد الزوجات لرجعوا عن غيهم ، واقتنعوا بوجاهة الدين وقوته . وسر التعدد نفصله فيما يأتى :

أولا — قد تصاب المرأة بمرض مزمن أومعد ، ويرى الرجل من الوفاء الاحتفاظ بها ، فلو لم يبح له التزوج بغيرها لوقع فى ضيق ، أو اقترف ما ينافى الشرف .

ثانيا — عدد النساء يُرْبِى غالبا على عدد الرجال ، لأن الرجال يعانون الأعمال الشديدة التى تستوجب إنهاك القوى و إضواء الأجسام ، بل إزهاق الأرواح لا سيما الحروب الطاحنة ، فإذا امتنع التعدد وأربى عدد النساء على الرجال لا يجد بعضهن أزواجا يعولونهن ، ويقومون بإصلاح شئونهن ؛ ولا غنى لهن عن الرجال لضرورة التكفل بما لا بد منه للحياة ، و إن لم يتم لهن الإحصان والتكفل كثر الفساد ، ولحق العار الأسر ، وتمكنت منها عوادى الدهر .

ثالثا — كثرة النسل ، ونمو العدد ، وبهما تقوى شوكة الأمم الإسلامية ، وتعلو سطوتها ، وتنفذ كلمتها فترهبها الأعداء ، وتتقيها الأمم . ومنع التعدد يفضى إلى تناقص عدد الأمة بقلة النسل ، ومتى تناقص عددها لانت قناتها ، وطمع فيها أعداؤها ، وامتدت إليها الأيدى والألسنة بالسوء ، وسارت فى طريق الاضمحلال والاندثار . ولا أدل على ذلك من أن عقلاء بعض الأمم الغربية فى أسف شديد ، و إشفاق عظيم من سوء المنقلب بما عراها من نقص النسل لمنع أبنائها من تعدد الزوجات فى حدود المعقول ، وما انضم إليه من إعراض كثير منهم عن الزواج بتاتا فرارا من حقوق الأهل ، وأعباء الأولاد .

من ذلك يتبين أن الإسلام بإباحته تعدد الزوجات سهل للمسلمين سبل التكاثر ودلهم على أن القصد به إرشادهم إلى أن القوة طريق العز والسيادة ووقاية من الذل والعبودية .

رابعا — دل الإحصاء فى غير الأقطار الإسلامية على أن حظر تعدد الزوجات أدى إلى وفرة الأولاد غير الشرعيين مما حدا بعض المفكرين إلى النظر فى توريثهم ، و إلى انتشار الأمراض الفتاكة التى أصابت الرجال والنساء والأطفال ولا قبل للطب بمكافحتها .

وليس كل إنسان يصح له أن يعدد الزوجات ، بل شرطت الشريعة الإسلامية توافر بعض الشروط فيمن يجوز له التعدد وهى القــدرة والكفاية والعدل . وهى شروط تجعله فى حيز الممنوع فقال تعالى .

« فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً » .

أى فاقتصروا على واحدة من الزوجات إن خشيتم الظلم وعدم العدل بينهن .

وقال صلى الله عليه وسلم : (من كان له امرأتان ولم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل) .

والمقصود بالعدل هنــا العدل فيما يمكن تحقيقه ويدخل تحت إرادة الإنسان واختياره : كالإنفاق والمبيت وحسن العشرة . أما ما ليس فى طاقة الإنسان ولا لإرادته فيه اختيار فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، ولهذا أعذر الله جل وعلا الميل القلبى فقال :

« وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْــلِ » .

فإن المحبة والعواطف النفسية ليست خاضعة لإرادة المرء وليس له سلطان عليها فلا يمكن أن يوزع حبه توزيعا عادلا بين الزوجات وقد وضع الشرع حدا للتعدد وهو ألا يتجاوز الأربع فقال تعالى :

« فَانْكِحُوا مَاطَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » .

٢ — الطــلاق :

الطلاق حل عقــدة النكاح ورفع قيده بلفظ الطلاق ونحوه . وقد أباحه الله تعالى لأنه ضرورة قد تقضى بهــا الأحوال والملابسات بين الزوجين فينجم عن ذلك شقاق وتباغض ، ولو استمرت الحال كذلك من غير فراق بينهما لأدت إلى عواقب

وخيمة . فالطلاق حد وسط بين أمرين : الإفراط باستمرار الحياة الزوجية من غير فراق ولو كانت الحال بين الزوجين سيئة كما فى أنكحة بعض الشرائع ، والتفريط بعدم إبقائها إلا زمنا قليلا كما فى الزنا ولذلك قال عليه السلام : (أبغض الحلال إلى الله الطلاق) فلذلك أباحه الله و بغض فيه لما قد يترتب عليه من الجفاء الذى نهى الدين عنه ، على أن الشريعة رأت إجراء التحكيم قبل الطلاق ليتروى كل من الزوجين فيه قبل الإقدام عليه كما قال تعالى :

«وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا»

فإذا كان الطلاق يتضمن أذى للزوجة بالباطل كأن يقع عليها من غير جناية من جانبها ومن غير ضرورة مُلِحَّة من جانب الزوج تحمل على ذلك كان مخالفا للإنصاف ومنافيا للمروءة ومستوجبا للذم والتأنيب ، إذ لا يجوز الإقدام عليه إلا فى أشد الحالات وأقصى الضرورات قال تعالى :

« فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا »

فالطلاق الذى استوفى الشروط قد اعتبر عملا بغيضا ، فإذا لم يكن مستوفيا لها كان عند الله أبغض ، وقد رأى فقهاء المسلمين فى قوله تعالى :

« فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ »

تحذيرا لكل من الزوجين مغبة الطلاق والإقدام عليه بدون ترو وتأمل ، فإن اشتراط زوج آخر قبل الرجوع إلى الزوج الأول لهو أكبر مانع من إيقاع الطلاق عند قوم كالعرب عُرِفوا بشدة الغيرة والحمية ، وأقوى رادع عن التمادى فى الطلاق والإسراف فيه ، لأن ذلك يمس مكان العزة والشرف فلا نعرف أحدا — اللهم إلا من فقد الغيرة الإنسانية — يرتاح إلى أن يتزوج غيره بامرأته بعد طلاقها .

وعدد الطلاق ثلاث طلقات ولا بد أن يكن متفرقات على ما عليه العمل الآن .

فقد جاء فى المرسوم بقانون رقم ٢٥ سنة ١٩٢٩ : أن الطلاق المقترن بعدد لفظا أو إشارة لا يقع إلا واحدة، ولا يقع طلاق الزوج إلا إذا كان بالغا عاقلا ، ويقع الطلاق باللفظ وبالكتابة وبالإشارة من الأخرس إذا كانت تدل على قصد الطلاق .

٣ — أسرار إباحة الطلاق :

أولا — دلت التجارب على أن الطلاق فرصة صالحة للتخلص من ضرر أشد منه ، عند استفحال أسباب الشقاق . وقام الدليل القاطع على أن ما جاءت به الشريعة الإسلامية فى شأن الطلاق أقرب إلى الإنسانية وأوفى بالعدالة مما جاء فى غيرها من الأديان والشرائع .

ثانيا — لم يكن العرب فى الجاهلية يرجعون إلى عدل أو إنسانية فى معاملة زوجاتهم فكانوا يعاملونهن بمنتهى القسوة والفظاظة لا تأخذهم بهن رأفة ولا رحمة مع اعتبارهن من متاع البيت وسَقَطه ، فجاءت الشريعة الإسلامية مستهجنة عاداتهم ووضعت شروطا وقواعد للطلاق ولإمساك الزواج قال تعالى :

« الطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ »

وقد كان من حكمة الإسلام وتمام ملاءمته للسنن الاجتماعية عدم تحريم الطلاق بتاتا؛ لأنه ليس شرا على الإطلاق، بل هناك ضرورات تقتضيه ولذلك أبيح بشروط وفى أحوال معينة إنصافا للزوجة وتحقيقا للعدالة .

ثالثا — عدم تعطيل النسل المرغوب فيه فقد تكون المرأة عقيما لا تلد والرجل فقيرا ليست عنده المقدرة على الجمع بين اثنتين فإن لم يستبدل بزوجته العقيم أخرى لم ينتفع بأهم مقاصد الزواج وهو النسل . وقد يكون الرجل هو العقيم فان لم يفارق المرأة ليختص بها سواه تعطل تناسلها وفات عليها استعدادها له .

رابعا — تيسير المعيشة للزوجين ؛ لأنه قد يتصف أحدهما بسوء فى خلقه أو ضعف فى دينه أو فساد فى عقله فيكون بينهما اختلاف فى الطباع وتنافر فى القلوب فلا تآلف ولا تحاب ولا معاونة .

والزوجية إن لم تؤسس على المحبة وتدعم بالموافقة تداعت أركانها وانهار بناؤها وانعكس المقصود منها ، وأصبحت المعيشة بؤسا وشقاء وعبئا ثقيلا على الزوجين وعلى ذريتهما فإباحة الطلاق فى أمثال هذه الأحوال تخلص كليهما من الشقاء الأبدى والعيشة المريرة .

وقد قضت حكمة الله تعالى أن يكون للطلاق عدد وحدود ، وذلك أنه اذا طلق زوجته طلاقا رجعيا لأمر طارىء يتيسر له أن يعيدها الى عصمته متى رأى أن ما حصل من طلاق كان فيه تأديب لها عما كانت قد ارتكبته من طغيان أو إمعان فى الضلال إذ لم يردعها بعث حَكَمٍ من أهله وحكم من أهلها للإصلاح والتوفيق ، فيكون فى الطلاق إصلاح لها ثم تكون الرجعة . أما إذا رأى منها ثبوتا على نفورها أو تمسكا بخلائقها فانه يكون على بينة من أمره وحقيقة من حالها فيختار الطلاق البائن ، وبذلك لا يمكنه أن يعود الى زوجته .

أما السر فى تحديد الطلاق فهو أنه إذا كان العدد لا يتناهى أو يوقف به عند حد فان الأزواج يتلاعبون به ويجعلونه خاتمة كل شقاق فينتفى المقصود منه .

هل ترى إنصافا أكثر من أن الشارع الإسلامى يعلن أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق وأن للمرأة حق طلب الطلاق لأسباب شرعية ؟ كل ذلك لأن الإقدام عليه دون استيفاء شروطه مقوض لسعادة الأسرة ، وله أثر سيىء جدا فى تربية الأبناء .

الاسلام والحكومة الصالحة

يقصد بالحكومة هنا الحكومة الدستورية ، لأن الحكومة المستبدة لا حق للأفراد معها إلا الطاعة العمياء غير الصادرة عن إرادة ورغبة .

وتقوم الحكومة الصالحة بجلب الراحة العامة للأفراد ، ودرء العوادى والشرور عنهم . وأهم واجباتها المحافظة على الدولة باتخاذ الوسائل الفعالة لصد غارات المعتدين من الخارج ، وإيجاد نظام حازم يكفل للشعب الأمن والراحة . وتقرير الأمن ليس معناه الضغط على حرية الأفراد ، كما أن حرية الأفراد ليس معناها الإخلال بالأمن بحجة الحرية .

ويجب على هذه الحكومة أن تقوم بالأعمال العامة النافعة التى تساعد على تقدم الشعب ورقيه ، وهذه الأعمال إما أن تكون مادية ، وإما أن تكون أدبية . فالأولى تكون بانشاء المنافع العامة التى تنهض بالزراعة والصناعة والتجارة كأعمال الرى ومد السكك الحديدية والزراعية ، وترقية سبل الملاحة واستغلال الثروة القومية استغلالا مفيدا إلى غير ذلك . وأما الأعمال الأدبية فمن أجلها أثرا نشر التعليم فى الأمة ، وتثقيف عقول الأفراد ، وتيسير ذلك على الفقراء ، وإنشاء دور الكتب والملاجىء ومساعدة العلماء والمخترعين والكاشفين .

وموقف الحكومة من أفراد الشعب كموقف الوصى الحازم الأمين ، فليس لها أن تحيد عن الصراط السوى مراعاة لمصلحة ذاتية ، أو انقيادا للأهواء الحزبية .

وقد وضع الدين قواعد وأصولا لهذه الحكومة الصالحة ، وبين ما يجب أن يتصف به الحكام من العدل والنزاهة والمحافظة على الحقوق ، وأخذ الرعية بالرفق واللين ، وما إلى ذلك من كل ما يكون أساسا متينا للحكومة الرشيدة الصالحة .

ومن أهم القواعد التى وضعها الإسلام لهذه الحكومة ما يأتى :

أولا — أن تكون الحكومة قائمة على المساواة بين الأفراد ، وقد يظن بعض الغافلين أن أول من نادى بذلك أوربا الحديثة وأن أول من صاح بالمساواة بين

الطبقات وحقوق الإنسان هى الثورة الفرنسية وكل ذلك خطأ، فان المساواة كانت من أقوى الأسس التى ارتكز عليها الإسلام ولم يكن مقلدا أمة من أمم الأرض. فقد كانت الفرس والرومان والمصريون دولا استبدادية ترتكز كلها على سلطة الفرد وتعج بالأشراف أصحاب الامتيازات ، وكانت الشعوب فى هذه الأمم عبيدا للسادة منها .

حتى إن العرب أنفسهم كانوا قبل الإسلام من أشد الأمم استبدادا وكانت قريش على جدبها وعزلتها تعير الأمم الأخرى بالعجمة وتحسب كل الناس عبيدا لها .

فكان عجبا حقا أن يبرز النبي صلى الله عليه وسلم مناديا بالمساواة بين الطبقات وهذا السبب وحده هو الذى ألَّب عليه شرفاء قريش فتآمروا على قتله غير مرة ، فقد خشى شرفاء قريش أن يرفع محمد صلى الله عليه وسلم العبيد والضعفاء والمساكين إلى مصافهم فكادوا له ، لأنه جاء بالحق والمساواة التى هى نظام الكون الطبعى وأساس الحكومة الصالحة . وهم يرون أن للمال والجاه والنسب حقوقا ترفعهم على العامة، ولذلك غضبوا على الرسول وعدوا هذا النظام بدعة فى أنديتهم. وما كان النبى ليخالف ذلك النظام الالهى الذى يقضى بالمساواة بين الطبقات فى المعاملات وأن ليس للرجل أن يَفْضُل غيره إلا بالتقوى ؛ وهو أمر لا يقوم على مال ولا جاه ولا نسب .

ولو قرأت عامة شعر العرب فى الجاهلية لرأيت الفخر بالآباء فاشيا فيه . وقد أخذ النبي أصحابه بالكف عن الفخر أشد الأخذ . روى أنه اجتمع فى مجلسه يوما عبد الرحمن بن عوف . وهو من أعز رجاله ، وأكرمهم عنده — وعبد من عامة الناس، وكان يخاصم عبد الرحمن فى شىء، فغضب عبدالرحمن، وسب العبد قائلا : يا ابن السوداء . فغضب النبى صلى الله عليه وسلم أشد الغضب ، ورفع يده قائلا : "ليس لابن بيضاء على ابن سوداء سلطان إلا بالحق" فخجل عبدالرحمن واعتذر للعبد.

وإذا تصفحت القرآن رأيته يحض على التساوى فى المعاملات، ومحو الفوارق بين الناس ويجعلهم جميعا متساوين فى الحقوق المدنية والدينية، ويقرر أن ليس للمرء إلا ما سعى . ولعل أبغض الناس فى الاستبداد والمستبدين "عمر بن الخطاب" فقد كان يسخر جهده من هذه الامتيازات التى كان يدعيها الأشراف .

ثانيا — أن يكون الأمر فيها بالشورى ، فقد كان النبى صلوات الله عليه لاينفرد بالرأى وهو المؤيَّد من الله ، بل كان يطرح الأمور بين يدى أصحابه ويشاورهم فيها ولا يكبر عليه أن ينزل عند رأى أحدهم : حدث أنه كان فى غزوة بدر وقد تهيأ للقتال ووقف للعدو موقفا لا تقره فنون الحرب ، فتعرض له أحد صحابته وقال : أهـذا منزل أنزلكه الله أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فأجاب : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .فأشار عليه صاحبه بتعديل موقفه فقبل وتابعه. وقد درج خلفاؤه الراشدون على سنته حتى إن عمر لمـا وجه جيشه لمحاربة الفرس أراد أن يقود الجيش بنفسه فاستشار فى ذلك أصحابه فأشاروا عليه بالبقاء وأن يولى قيادة الجيش غيره من ذوى البأس والنجدة فقبل المشورة . هـذه الروح القوية هى التى دعمت حكومة الإسلام والمسلمين ومكنت لهم فى الأرض .

ثالثا — أن يكون للذمى مثل ما للمسلم من الحقوق المدنية والحرية الدينية لا ينازَع فيهما إلا بالحق، وهذا يدل على العدل المطلق وبناء الملك على أساس متين من العدل والمساواة .

وقد حدث أن أحد أعيان الفرس — وكان ذميا — كانت له ضيعة تلاصق مِلْكا لأمير كان واليا لعمر بن الخطاب ، فرأى هذا الأمير أن يغتصب من هذا الدِّهقان ضيعته ؛ فعارضه فى ذلك فزجره وأهانه . فأشارت عليه زوجه أن يستعدى عليه عمر ففعل وارتحل الى المدينة ، وسأل عن بيت عمر فأُرشد إليه فاذا عمر جالس على عباءة ممزقة، فشكا إليه الدهقان ما لقيه من عامله ، فطلب عمر صحيفة وكتب فيها بعض الشيء وأراد خيطا ليلفها به فلم يجده فمزق قطعة من عباءته ولف بها الصحيفة وناولها

الرجل فأخذها وارتحل الى بلده وأبدى أسفه الى زوجته لأنه ذهب الى رجل لا يقدر على خيط يشد به صحيفته فكيف يستطيع أن يلزم الأمير أمْرَهُ ؟ فقالت زوجته : وما عليك ؟ احمل الصحيفة اليـه ، فحملها فلما فضها الأمير وقرأها تصبب عرقا وقال للدهقان : ماذا فعلت ؟ خذ الضيعة ، وهنا يحدث الدهقان فيقول : قرأت الصحيفة فاذا فيها : أنصف فلانا من نفسك و إلا فأَقبِل والسلام .

رابعا : أن يكون العدل شاملا جميع الطبقات فقد عنى الإسلام باقامة العـدل عناية عظيمة فقال تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » وقال تعال : « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ »

وسر ذلك أن العدل يدعو الى الألفة ويبعث على الطاعة وتعمر به البلاد وتنمى به الأموال. وليس شيء أسرع فى خراب الأرض ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور ، لأنه لا يقف عند حدّ ولا ينتهى إلى غاية. تأمل قوله صلى الله عليه وسلم : (ثلاث مُنْجيات وثلاث مهلكات . فأما المنجيات فالعدل فى الغضب والرضا ، وخشـية الله فى السر والعلانية ، والقصد فى الغنى والفقر . وأما المهلكات فشُحٌّ مطاع ، وهَوًى مُتَّبَعٌ ، و إعجاب المرء بنفسه)

١ — اختيار الحاكم من ذوى الدين والكفاية :

الحكام على اختلاف درجاتهم قد جعل الله بأيديهم أزمة العباد ومَلَّكهم تدبير البلاد ، واسترعاهم أمر الرعية وفوض اليهم سياسة البرية وجعلهم من الداعين إلى الهدى ونور الدين ، يأمرون بالمعروف و ينهَوْن عن المنكر ، وأوجب على المحكومين الطاعة لهم فى الخير فقال :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ » .

فقد قرن جل شأنه إطاعة الشرائع السماوية باطاعة الحكومة التى تنفـذ تلك الشرائع . فالوالى من الرعية بمنزلة الروح من الجسد الذى لا حياة له إلا بها ، وبموضع الرأس من سائر الأعضاء ، فانه لا بقاء لها إلا معه .

من أجل ذلك وجب أن يكون الحاكم من ذوى الدين والكفاية ، لأن الدين هو الذى يصون النفوس من ميولهـا الضالة ويصرفها عن إرادتها السيئة ويقهـر السرائر ويزجر الضمائر وهو الرقيب على النفوس فى خلواتها والناصح لها فى ملماتها .

والحاكم أسوة للناس فى دينه وأخلاقه وأعماله وتصرفاته ، فان كان مثلا صالحا طيبـا اقتدَوا به ، وخافوا بطشه ، ورغبوا فى الخير معه وإلا كان الشر والوبال والخسران . وقد جاء فى وصية أرسطو للاسكندر فى هذا المعنى : (واعلم أنك غير مصلح رعيتك وأنت فاسد ، ولا مرشدهم وأنت غاو ، ولا هاديهم وأنت ضال ، فكيف يقدر الأعمى على أن يَهدى ، والفقير على أن يُغنى ، والذليل على أن يُعزّ) .

وأهم ما يجب فى الحاكم وفى كل موظف الدقة واليقظة واحترام النظم والقوانين واستخدام الذكاء فى الخير وحرية العقل والاستقلال الشخصى حتى لا تؤثر فيـه الأغراض والمنافسات الحزبية .

ويجب أن يختار للوظائف العامة أكفاء أبنـاء الشعب وأكملهم أخلاقا دون التفات الى الوساطة والزلفى ؛ ويتسنى للأمة ذلك بوضع قواعد عادلة للتوظيف والترقية وتقرير المكافآت لمن يمتاز منهم باخلاصه ونشاطه ، فاذا لم توضع هذه القواعد العادلة ولم تراع الأمة فى اختيار رجالها الكفاية والاستعداد والنبوغ أو نشأ فيها داء الوساطة — تغلب ذوو الشفاعة على ذوى الكفاية ، واختل ميزان العدالة وعم الظلم وانتشر فى جميع مرافق الحياة وأخذ مقاليدَ الأمور من لا يحسنون القيام بهـا ولا يستطيعون الاضطلاع بأعبائها ، وحيل بين ذوى العبقريات وما هم جديرون به من تولى المناصب وتدبير شئون الحكم فتختل أمور الدولة .

ودعامة الحكومة تتألف من رجال السلطة التنفيذية كالوزراء وموظفى الإدارة عموما ، وهؤلاء يجب أن يحترموا القوانين واللوائح وأن يقوموا بتوزيع العدالة باخلاص ونزاهة ، ولا يتأتى لهم القيام بذلك على الوجه المطلوب الا اذا كانوا من ذوى الدين والكفاية الممتازة .

وتتألف كذلك من رجال السلطة القضائية التى تفصل بين الناس فى منازعاتهم وتقيم الحدود وتوصل الحقوق لأربابها . فالقاضى هو حارس الشرائع والمؤتمَن على الآداب والعدالة ، واليه مرجع القصاص من الجناة وعقاب الأشرار والأخذ بيد المظلومين إحقاقا للحق و إزهاقا للباطل .

ولا يقتصر عمل القاضى على الفصل بين الأفراد فقط ، بل ينظر كذلك فى الدعاوى التى تقوم بين الأفراد والحكومة فى الشئون الخاصة والعامة .

ولما كان القاضى هو المؤتمن على العدل وعلى حقوق الناس كان من الواجب أن يختار لهذا المنصب أنبل الناس خلقا ، وأطهرهم نفسا ، وأذكاهم عقلا ؛ ضمانا للعدل و إصلاحا لنظام المجتمع .

و ينبغى للحاكم أن يكون فطنا لبيبا ، بعيدا عن الشر ، قوى الشكيمة ، صادق الفراسة ، بعيد النظر ، عالما دينا ، متصفا بأجمل الصفات الطيبة . ولذا قال على كرم الله وجهه :

(قد علمتم أنه لا ينبغى أن يكون الوالى على الدماء والمغانم والأحكام ، و إمامُ المسلمين — البخيلَ ؛ فتكونَ فى أموالهم نَهَمته ، ولا الجاهل فيضلَّهم بجهله ، ولا الجافى فيقطَعَهم بجفائه ، ولا المرتشى فى الحكم فيذهب بالحقوق و يقف بها دون المقاطع ، ولا المعطل للسنة فيُهلك الأمة) .

وقد كتب الحسن بن سهل وزير المأمون العباسى إلى محمد بن سَمَاعة القاضى يطلب منه اختيار حاكم لأحد المناصب يكون جامعا لخصال الخير ، فطنا ، لبيبا ،

ذا عقل ودين . وهــذه الرسالة قد جمعت كل الصفات التى يجب أن يتصف بها الحاكم من حيث الكفايةُ والدين وهى :

(أما بعد فإنى احتجت لبعض أمورى إلى رجل جامع لخصال الخير ، ذى عفة ونزاهة طُعْمَةٍ ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، ليس بظَنين فى رأيه ، ولا بمطعون فى حسبه ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قُــلِّدَ مُهِمًّا من الأمور أجزأ فيه ، له سن مع أدب ، ولسان تُقْعِدُهُ الرزانة ، ويُسْكِنه الحلم ، قد فُرِّعن ذكاء وفطنة ، وعَض على قارِحَة من الكمال ، تكفيه اللحظة ، وترشده السكتة ، قد أَبْصَر خدمة الملوك وأَحْكَمها ، وقام فى أمورهم فَحُمِدَ فيها ، له أَناةُ الوزراء ، وصولة الأمراء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء . لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يكاد يسترقُّ قلوب الرجال بحلاوة لسانه ، وحسن بيانه . دلائل الفضل عليه لائحــة ، وأمارات العلم له شاهدة ، مضطلعا بما استُنْهِض ، مستقلا بما حُمِّل ، وقد آثرتك بطلبه ، وحبوتك بارتياده ، ثقةً بفضل اختيارك ، ومعرفة بحسن تَأَتِّيك) .

وهذه الصفات لو توافرت فى الحاكم لكان مثلا أعلى للفضل والكمال .

٢ — وجوب العــدل على الحكام وإيصال الحقــوق إلى أهلها لا يمنع من ذلك خصومة شخصية :

الحاكم هو الأمين الذى يتولى شئون الدولة ، ويتصرف فيها بمـا أوتيه من عقل وفطنة وخبرة وبمقتضى ما يوحى به ضميره ويأمر به دينــه ، فكان لزاما أن يكون من ذوى العدالة والورع والتقوى ، لا تأخذه هَوادة فى تطبيق القانون وإقامة الحدود وتنفيذ الأحكام مراعيا العــدل وعدم التحيز ، فإن كان قاضيا مثلا اعتمد فى أحكامه على الحجج والبراهين ، وجعل العدل شعاره ، وحب الحق دثاره . وعليه ألا يذكر وهو فى كرسى القضاء صاحبا ولا قريبا ، بل يكون جميع الناس أمامه سواء : يحكم بينهم بالعدل غير خائف من حاكم أو متهيب من عظيم أو متطلع لفائدة

أو حريص على مركزه ، أو متأثر بميول غريبة . بل يكون دائماً رجلا نزيها بعيدا عن التحيز وآثام الشهوات حتى يطمئن الناس إليه ، ويتحقق العدل فى أحكامه ؛ فإن العدل ميزان الله عز وجل فى أرضه المنصوبُ بين الخليقة، نصبه الله وجعل له قيما وهو الملك وكل من ينفذ الأحكام نائبا عن الملك نفسه ، وبه يؤخذ للضعيف من القوى وللمحق من المبطل ، فمن أزال ميزان الله عز وجل عما وضعه بين عباده فسد أمره وضاع ملكه . قال تعالى :

« وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ» . وقال تعالى :

« وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا » .

والمعنى لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم .

وقال صلى الله عليه وسلم : (أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله فى سلطانه فجار فى حكمه) وقال بعض الحكماء : (أقرب الأشياء صَرعَةُ الظَّلوم ، وأنفذ السهام دعوة المظلوم) وقال أردشير بن بابك : (إذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن طاعته) .

والحاكم السوء يخيف البرئ ويصطنع الدنىء ، فما أنفع العدل وما أضر الجور .

٣ — مثل نبيل من أمثال إيصال الحقوق إلى أهلها :

حدث الشيبانى قال : جلس المأمون يوما للظالم . فكان آخر من تقدم إليه، وقد هَمَّ بالقيام ، امرأة عليها هيئة السفر وعليها ثياب رثة . فوقفت بين يديه فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم . فقال لها يحيى : وعليك السلام يا أمة الله . تكلمى فى حاجتك فقالت :

يا خير مُنتصِفٍ يَهدى له الرَّشَدُ ... ويا إماما به قد أشرق البلد
تشكو إليك عميدَ القوم أرملَةٌ ... عدا عليها فلم يترك لها سَبَد
وابتز منى ضِياعى بعد مَنْعتها ... ظلما وفرق منى الأهل والولد

فأطرق المأمون حينا ثم رفع رأسه إليها وهو يقول :

فى دون ماقلت زال الصبر والجلد عنى ، وقرح منى القلب والكبد
هذا أذان صلاة العصر فانصرفى وأحضرى الخصم فى اليوم الذى أعد
والمجلس السبت إن يُقْضَ الجلوس لنا ننصفك منه ، و إلا المجلس الأحد

فلما كان يوم الأحد جلس . فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة . فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين و رحمة الله و بركاته . فقال : وعليك السلام . أين الخصم ؟ فقالت : الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين وأومأت الى العباس ابنه فقال : ياأحمد بن أبى خالد خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم ، فجعل كلامُها يعلو كلام العباس . فقال لها أحمد : يا أمة الله ، إنك بين يدى أمير المؤمنين و إنك تكلمين الأمير اخْفِضى صوتَك . فقال المأمون : دعها يا أحمد ، فان الحق أنطقها وأخرسه ، ثم قضى لها برد ضيعتها ، وظلم العباس بظلمه لها ، وأمر بالكتاب لها إلى العامل ببلدها أن يجعل لها ضيعتها من غير خراج ، ويحسن معاونتها، وأمر لها بنفقة .

٤ — الحاكم قدوة صالحة للمحكومين :

الحاكم إمام يتبعه الناس و يقلدونه فى أخلاقه وأعماله ومظهره وتصرفاته . فان كان أسوة صالحة ومثلا طيبا لمكارم الأخلاق أحبوه والتفوا حوله وتشبهوا به فصلَحت حالهم .

و إن كان غير ذلك ساءت حاله وحالهم و كان ضالا مضلا . لذا كان واجبا على الحاكم أن يكون قدوة صالحة للمحكومين ، فانه لا يمكن أن يُصلح غيره إلا بصلاح نفسه . ولذلك جاء فى وصية أرسطو للاسكندر فى هذا المعنى ما يأتى : (واعلم أنه ما أصلح المستصلِح غيره إلا بصلاح نفسه ، ولا أفسد المفسد سواه إلا بفساد نفسه . فان رغبت فى إصلاح من وُلِّيت فابدأ باصلاح نفسك . و إن

أردت رفع العيوب عن غيرك فطهر نفسك منها ، ولا يُرِيَنَّك رأيك أنك إذا أحسنت القول دون الفعل فقد وفيت البلاغ حقه ، فذلك لا يتم دون أن يصدق قولَك فِعلُك وتحقق سريرتَك علانيتُك .

وأعلم أنك مطبوع على أخلاق مختلفة منها حسنات ومنها سيئات . فأعدى عدوك سيئاتُ أخلاقك ، وأولى الأشياء بك حسنات أخلاقك ؛ فقابِل بعض أخلاقك ببعض : غضبَك بحلمك ، وجهلك بعلمك ، ونسيانك وغفلتك بفكرك ونظرك . وأعلم انه ليس أحد أصلح للناس من أولى الأمر إذا صلحوا ، ولا أفسد لهم منهم إذا فسدوا ، وأن الوالى من الرعية مكان الروح من الجسد الذى لا حياة له إلا بها ؛ فبالوالى مع فضل منزلته من الحاجة إلى إصلاح الرعية مثلُ ما بالرعية من الحاجة إلى إصلاح الوالى ، وقوة بعضهم زيادة فى قوة بعض ، ووهن بعضهم سريع فى وهن بعض) .

ومما يجعل أثر الحاكم عظيما من حيث كونُه قدوة صالحة للمحكومين أن المغلوب كما يقول ابن خلدون ،ولع أبدا بالاقتداء بالغالب فى شِعاره وزِيه ونِحلته وسائرأحواله وعاداته ؛ لأن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن ولى عليها وانقادت إليه . وانظر ذلك فى الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متَشبهين بهم دائما وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم .

ومن كلام للإمام علىّ كرم الله وجهه إلى عثمان الأنصارى عامله على البصرة يبين له كيف يجعل الحاكم من نفسه قدوة نافعة ما يأتى :

” ألا وإن لكل مأموم إماما يقتدى به ويستضىء بنور علمه . ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بِطِمْرَيهِ (ثوبيه الباليين) ومن طعمه بقُرْصَيْه . ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك ، ولكن أعينونى بورع واجتهاد وعفة وسداد ، فوالله ما كنزت من دنياكم تِبْرا ، ولا ادخرت من غنائمها وَفْرا ، ولا أعددت لبالى ثوبىّ طِمْرا ، وإنما هى نفس أَرُوضها بالتقوى لتأتى آمنة يوم الخوف الأكبر ، وتثبت على

جوانب المَـزْلَق ، ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مُصَفَّىهذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز . ولكن هيهات أن يغلبنى هواى ويقودنى جشعى إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له فى القرص ولا عهد له بالشبع. كيف أبيت مِبْطانا وحولى بطون غَرْثَى وأكباد حَرَّى ؟ أَوَأكون كما قال القائل :

وحسـبك داء أن تبيت بِبِطنةٍ وحولك أكباد تحن إلى القِدْر

أأقنع من نفسى بأن يقال : أمير المؤمنين ، ولا أشاركهم فى مكاره الدهر ، أوأكون أسوة لهم فى خشونة العيش ؟ فما خلقت ليشْغَلَنى أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همُّها علَفُها ، أو المرسَلَة شغلها تَقَمُّمُها : تَكْتَرِش من أعلافها وتلهو عما يُراد بها وكأنى بقائلكم يقول :

” إذا كان هذا قوتَ ابن أبى طالب فقد قعد به الضعف عن قتـال الأقران ومنازلة الشجعان “. طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها، وَعَرَكت بجنبها بؤسها وهجرت فى الليـل غُمْضَها ، حتى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها ، وتوسدت كفها فى معشر أسهرَ عيونَهم خوفُ معادهم ، وتجافت عن مضاجعهم جُنُوبُهم ، وتقشعت بطول اسـتغفارهم ذنوبهم ” أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون “ .

فالحاكم الصالح يكون قـدوة صالحة للمحكومين فى نزاهته وتقشفه وبعـده عن مواطن الزلل والخطل مع الإيمـان وصدق اليقين والعمـل على إسعاد غيره وحبه للناس كحبه لنفسه ومراقبة الله فى السر والعلن .

٥ ــ أخذ الرعية بالرفق واللين :

مما جاء فى الشرع الشريف وجوب التحلى بالرفق واللين وضـبط النفس والعفو عند المقدرة ، والبعد عن فحش القول وبذاءة اللسان ، وأَحْرِ بالحاكم أن يكون متصفا بهذه الصفات الجميلة والأخلاق الكريمة النبيلة فيحسنَ معاملة المحكومين ،

لأن المعـاملة الطيبة تجلب المودة والمحبة وتؤلف بين القلوب وتبعث الطمأنينة إلى النفوس ، فقد قال تعالى مخاطبا نبيه :

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ » .

ففى هذه الآية الكريمة حث على الرفق وحسن المعاملة ولين الجانب ، فان هذه الخلال تؤدى إلى الترابط والمودّة ، واتصال القلوب وتقارب الأرواح ، والتعاون على البر والتقوى ، وتبادل الإخلاص والوفاء وصادق الولاء . أما الغلظة فتـدعو إلى التنافر والتباغض والتحاسد وتفريق الكلمة وانفضاض الناس من حول من كان قاسيا فظا وذلك جزاء القساة الطاغين . والواجب على من ولى أمور المسلمين أن يرجع إلى الله جل وعلا فى كل لحظة لئلا يطغيه ما هو فيه من سلطان وعز وجاه فيسىء إلى الناس .

ومن أجلّ الأمثلة للرفق بالرعية واللين فى معاملتها أنه لمـا فعل المشركون ما فعلوا بالنبى صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد وطُلب منه أن يدعو عليهم — قال : " اللهـم اغفر لقومى ، فانهم لا يعلمون " .

وحسبك فى هـذا الباب ما فعله مع مشركى قريش الذين آذوه واستهزءوا به وأخرجوه وأصحـابه من الديار ثم قاتلوه وحرضوا عليه غيرهم من مشركى العرب حتى تمـالأ عليه جمعهم ، فلما فتح الله عليه مكة مازاد على أن عفا وصفح وقال لهم : ماتظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم . فقال : اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء .

فيجب على الحاكم أن يقتدى بالرسول فى أخلاقه وأعمـاله فيحسن معاملة المحكومين ويكون بهم رءوفا رحيما .

٦ — عناية الوالى باختيار أعوانه وبطانته :

من القواعد التى وضعها الدين الإسلامى لتكون أساسا للحكومة الصالحة الرشيدة، أن يُعْنى الحاكم أو الوالى باختيار أعوانه وبطانته ، من ذوى الكفاية والصلاح والدين والخبرة ، ليستعين بهم على تمحيص الأمور وفهم الحقائق ، فيكونوا خير مساعد له على تدبير الشئون ، ولذلك نهى الشرع عن اتخاذ بطانة السوء ، وحث على اجتنابها فقال تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ » .

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى نهى المؤمنين الذين آمنوا به وصدقوا برسله وكتبه عن أن يتخذوا أولياء أو يتخيروا أصفياء ممن يكونون على غير دينهم، أو يكونون بطانة سوء وفساد ، لأن هؤلاء يقفون على الأسرار ويعتمد الوالى عليهم ، ويثق بهم ويستشيرهم فى أمور كثيرة وهم لفسادهم وضعف دينهم من ألد الأعداء له ، فلا يألون جهدا فى الإيذاء متى أتيحت لهم الفرص ، ويودون أن يضروا الولاة والأمة فى الدين والدنيا أشد الضرر وأبلغه . وأن ما يبدر من فلتات لسانهم إنما هو من أمارات العداوة والبغضاء ، وما يضمرونه فى أنفسهم أشد وأعظم خطرا ، فلو اطلعت عليهم لَوَلَّيت منهم فرارا ولَمُلِئْتَ منهم رعبا ،ولهذا أمر الله بموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه المنافقين المفسدين . قال تعالى :

«لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَـٰةً » .

وقال تعالى فى التحذير من بطانة السوء :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * » .

وذلك لأن قرناء السوء لا أمان لهم ولاوفاء ، فهم لا يكتمون سرا ولا يرقبون إلًّا ولا ذمة ، وأولئك هم الكافرون . يضمرون العداوة والسوء ، ويظهرون الصداقة والمحبة مداهَنَةً ورياء ونفاقا ، حتى إذا ماحدث حادث للوالى ولَّوا الأدبار ونكصوا على أعقابهم وبخلوا بالمساعدة التى قد تنفع فى حالات الشدة ، بل إنهم قد يكونون ممن يدبرون له وللأمة المكايد ، وينصبون الحبائل؛ ليتم للحاكم الوقوع فى الشر . وهؤلاء أضر على الأمة من غيرهم ممن يكونون بعيدين عن البطـانة ، على أنهم قد يستدرجون الوالى إلى الاقتداء بهم فيما تورطوا فيه من كفر وفسوق، وهنا تكون الطامة الكبرى والمصيبة العظمى .

أما الأعوان المخلصون فهم ساعد الوالى الأشد ، وقوته التى بها يَعتد ، وبهم يشتد أزره ويعظم نصره ، ويقوى حكمه ، لإخلاصهم فى خدمة أمتهم وملكهم وواليهم .

عن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (من ولى منكم عملا فأراد الله به خيرا جعل له وزيرا صالحا : إن نسى ذكَّره ، وإن ذكر أعانه) ذلك لأن اعوان من ولى أمور الناس ومهامهم فريقان : فريق ناصح أمين يبَصِّره بمعايب الأمور ونقائص الأعمال ، ويرشده إلى مزالق الأقدام . فيجعله حريصا حذرا من الوقوع فى الخطأ ويأخذ بيـده إلى حيث السلامةُ والنجاة . وفريق يزين له كل ماصدر منه ويُمَوِّه أمام عينه الحقائق فتبدو على غير صورتهـا الحقيقية ويقوظ كل

ما يعمله أو يقوله ، ويهون له مايكون من خطل فى رأيه أو فساد فى إدارة حكمه ويخفى الضرر الذى تبدو أعلامه فى سبيله فلا يلبث أن يرتطم فى سوء عمله ، و يرتبك ارتبا كا شديدا ، و يعجز عن الإصلاح ، و يُعْوِزَه الهدى والسداد .

والشواهد على ذلك كثيرة فى كل عصر وأمة . وما أُخِذَ المسلمون من جميع نواحيهم إلا بتقريبهم بطانة الشر ورجال السوء وتوليتهم شئونهم غيرَ الأمناء الصادقين وتشريدهم أولى الرأى والحزم و إقصائهم الصالحين الأكفاء حتى هلكوا وأهلكوا من تبعهم وسامهم كل مفاس ، وقديما كانت بطانة السوء وبالا على الأمراء والخلفاء والأمم .

فينبغى للحاكم ألا يعتمد إلا على من كان أمينا ناصحا ثقة حازما ، وأن يكون هو كيِّسا متدبرا متفقدا أحوال أعوانه ليعرف أمرهم ويقف على نياتهم واستعدادهم وما يضمرون ، لأن المصيبة إنما تدخل على الحاكم من قبوله قول من لا يثق به ولا يعول عليه وقد قيل : (يؤتَى الحذِرُ من مأمنه).

٧ — تفقد الحاكم احوال الرعية ، وتيسير وصول الظلامات إليه :

الحاكم فى الأمة كالطبيب ، فكما أن الطبيب يفحص عن المريض فحصا دقيقا ليعرف مكمن الداء ، ويقف على حالات المرض ليمكنه أن يصف الدواء الناجع الذى فيه الشفاء — كذلك الحاكم يجب أن يفحص عن حالات الرعية ، ليتبين صالحها وفاسدها ، وغثها وسمينها ، ويقف على ما تحتاج إليه من إصلاح وتقويم ، فيسعى فى تحسين حالها ، وتنظيم شئونها على ضوء ما وصل إلى علمه من حال أمته ، فيكون تدبيره حازما ، وعمله نافعا ، ومن أجل هذا نرى الأمم الراقية تُعْنَى عناية خاصة بالإحصاء العام لتتعرف منه حال الأمة من حيث عدد سكانها ، وحالتهم من القراءة والكتابة ، وتقف على ذوى العاهات والعاطلين ومن فى حكمهم لتتخذ الوسائل الكفيلة بإصلاح هذه الشئون . فان وجدت مثلا أن نسبة الأمية

كبيرة عملت على الإكثار من المعاهد العلمية لمحوها ، وإن تبين من الإحصاء أن المتعطلين كثيرون دبرت أمرها بما يكفل لهم وسائل الكسب والرزق من إنشاء المصانع والمعامل وما إلى ذلك ، وإذا تبين أن عدد ذوى العاهات كثير أنشأت الملاجىء والمعاهد الخاصة بهم ، وأكثرت من المستشفيات حتى تهيىء هؤلاء المساكين إلى العيش بقدر استطاعتهم . وقس على ذلك سائر الأحوال التى تظهر من الإحصاء العام ، وهذا هو معنى تفقد أحوال الرعية للعمل على إنهاضها وإسعادها وترفيه حالها .

وما الوالى فى الأمة إلا كالأب فى الأسرة ، فكما أن الأب يحرص على تعرف حاجة أبنائه ، ويمهد لهم السبل للسير فى طريق الحياة بنجاح وفلاح ، كذلك الوالى ينبغى أن يعرف شئون الرعية ليسير بها فى الطريق القويم ، والمنهج المستقيم . أما إذا كان الوالى لا يأبه شيئا من ذلك ، ولا يفطن لحاجة الأمة ، ولا يعمل فكره فيما يعلى شأنها فانه يكون غير صالح للمنصب الذى شغله ، بل يكون ضالا مضلا ، لا يُرْجَى منه خير ، ولا يعود منه فضل .

وعلى الوالى ، اذا أراد أن يقف على حقيقة الأمور ، أن يتصل بالرعية اتصالا وثيقا ، وأن يخالطهم ، ويتعرف شكاياتهم ، ويبحث ظلاماتهم ، ليضع الحق فى نصابه ، ويقيم ميزان العدالة . أما إذ أقام حجابا بينه وبين من ولى أمورهم فانه يكون فى ظلام دامس ، بعيدا عن ضوء المعرفة ، فلا يستطيع أن يبت فى أمر على الوجه الصحيح ولا يمكنه أن يقيم شعائر الدين وأصول العدل ، فيشتد الظلم على الرعية وتسوء الحال ولهذا كان الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم يقفون بأنفسهم على حالة من ولوا أمرهم ليأخذوا للضعيف من القوى ، وينشروا لواء العدالة والسلام .

وقد جاء فى خطبة أبى بكر رضى الله عنه حين بايعه الناس البيعة العامة ما يدل على شدة حرصه على الاتصال بالرعية ، ومعرفة الظلامات والشكاوى لإقامة العدل فقد قال بعد ان حمد الله وأثنى عليه :

(أما بعد ، فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، وإن أقواكم عندى الضعيفُ حتى آخذ له بحقه ، وإن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه) .

والمثال الآتى يبين واجب تفقد شؤون الرعية :

روى أسلم قال : خرجت مع عمر بن الخطاب إلى حرة واقِم (وهى مكان بظاهر المدينة) حتى اذا كنا بِصِرارٍ (وهو اسم لواد) إذا نار تُؤَرَّث . فقال : يا أسلم ، إنى أرى هؤلاء ركبا قصَّر بهم الليل والبرد، انطلق بنا نحو النار ، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فاذا امرأة معها صبيان لها وقِدر منصوبة على النار وصبيانها يصيحون ، فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء (وكره أن يقول يا أصحاب النار) قالت المرأة : وعليك السلام . فقال : أأدنو؟ قالت : أدْنُ بخير أو دَعْ . فقال : ما بالكم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد . قال : فما بال هؤلاء الصِّبْية يتضاغَوْن ؟ (يصيحون) قالت : الجوع . قال : وأى شيء فى هذه القدر ؟ قالت : ماء أُسْكِتهم به حتى يناموا . الله بيننا وبين عمر . فقال أى رَحِمَكِ الله ما يُدرى عمرَ بكم ؟ قالت : يتولى أمورنا ويغفل عنا ! ! فأقبل على فقال : انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عِدلا فقال : احمِله على . قلت : أنا أحمله عنك . قال : احمله على (مرتين او ثلاثا) كل ذلك وأنا أقول : أنا أحمله عنك . فقال فى آخر ذلك : أأنت تحمل عنى وِزرى يوم القيامة، لا أُمَّ لك ، فحملته عليه فانطلق وانطلقت معه يهرول حتى انتهينا اليها ، فألق ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئا وجعل يقول : ذُرِّى عَلَىَّ وأنا أحرك وجعل ينفخ تحت القدر حتى أنضج الطعام وقال ابغِنى شيئا . فأتته بصفحة فأفرغها فيها ثم جعل يقول : أطعميهم وأنا أسْطَحُ لك ، فلم يزل حتى شبعوا ، ثم خلى عندها فَضْلَ ذلك وقام

وقمت معه ، فجعلت تقول : جزاك الله خيرا ، أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين، فقال : قولى خيرا ، إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله . ثم تنحى ناحية ، ثم استقبلها وربض مربض السبع فجعلتُ أقول : إن لك لشأنا غير هذا ، وهو لا يكلمنى حتى رأيت الصِّبْيَةَ يضحكون ، ثم ناموا وهدءوا ، فقام وهو يحمد الله ، ثم أقبل على فقال : يا أسلم ، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت .

فهذا مثل رائع من أمثال تفقد أحوال الرعية .

٨ — عمل الوالى على إسعاد رعيته :

الوالى راع كفيل ، وحافظ أمين ، مسئول عن أهل مملكته أو إمارته ، والرعية أمانة فى يده يجب عليه القيامُ بحفظها وحسنُ التعهد لها والعمل لمصلحتها . فمن ولاه الله شئون الخلق من ملك وأمير ورئيس ووزير يجب عليه أن يحوطهم بنصحه، ويخلص لهم فى حكمه ؛ فيكون لهم كما يكون لنفسه : يقيم العدالة فيهم ، ويرد الحقوق لأربابها ، ويحترم حرياتهم فى دائرة الحق والأدب ، ويعمل على سلامتهم من الأمراض ووقايتهم من الأضرار ، ويسعى السعى كله لإسعادهم وترفيه حالهم ؛ فهو مسئول عنهم كما قال صلى الله عليه وسلم : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) ، وقال : (ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يَحُطْهَا بنصحه إلا لم يجد رائحة الجنة) . وعليه أن يعمل كل ما فيه إسعاد لهم بأن يقيم بينهم دور العلم ، ويسهل السبل إليه ، وينمى ثروتهم بالجد فى ترقية الصناعة والتجارة وتحسين الزراعة ، وينشر الأمن على النفس والمال والعرض فيق نفوسهم، ويرعى مالهم، ويصون عرضهم ، ويعمل لمجدهم وعزتهم وشرفهم وكرامتهم . وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من لم يحط رعيته بنصحه ولم يحفظها بقوله وفعله ، بل كان فيها الحاكم الخامل أو الوالى الظالم ، أو الراعى الغاش الذى يتظاهر بالجد فى المصلحة وهو يضمر المفسدة ، يبدو للناس فى ثياب العابد الورع القانت ، وهو فى الحقيقة ماكر غادر — فإن هذا مأواه النار وما للظالمين

من أنصار ؛ لأنه يغش الآلاف من الناس ويسومهم الهوان والذل ، ويحرمهم لذة الحياة ؛ فيستحق النكال أضعافا مضاعفة ، وما ربك بظلام للعبيد .

فالحاكم الذى يعمل لإسعاد الرعية هو الذى يحرص على مصالحها ، ويدافع عن حقوقها ، ويفتح الأبواب لمعايشها ، ويذلل السبل لتنمية ثروتها مع التنكيل بالمجرمين الخائنين والعمل على قطع الفساد فى الأرض ، ومنع الجرائم منها ، الى غير ذلك مما ترقى به الأمة وتسلم من الأضرار .

وإن الإمام لمسئول أمام الله عن أمته وجماعته : يسأل عن كل فرد فيها ، وعن كل عمل من أعمالها ، يسأل عن ثروتها موردا ومصرفا وعما عمل لمصلحتها ، وسلك لسعادتها ، وعما قام به من الواجب نحوها . وعليه أن يراعى تطبيق القانون بعدالة شاملة جميع الطبقات ، وأن ينال الضعفاء من رعايته أضعاف ما يناله غيرهم فيحميهم ويحفظ حقوقهم ، ويمنع التعدى عليهم حتى يستتب الأمن ، ويعم السلام ، ويتفرغ الناس لأعمالهم ، وفى هذا سعادة لهم أى سعادة .

٩ — محافظة الحاكم على حقوق الدولة ومنع أقاربه من الانتفاع بسلطانه :

إن الحاكم الأمين هو الذى يحافظ أشد المحافظة على أموال الدولة وحقوقها ، ويجعل نفسه رقيبا على كل صغيرة وكبيرة فيها ، فلا تمتد يده إلى شىء منها ، ولا يعتدى على حق من حقوقها ؛ بل ينزه نفسه ويبعدها كل البعد عن أن تستبيح من مال الأمة ما ليس لها ؛ وأن يكون عونا للأمة لا عليها ، بأن يعدل فى أحكامه ، ويسوى بين الناس فى مناصبهم ودرجاتهم وما يستحقونه بحسب القانون ، وما تؤهله لهم كفايتهم واستعدادهم دون محاباة ولا تحيز لفريق دون آخر ، ولا مراعاة لوساطة أو قرابة أو ما شابه ذلك ، مما هو ظلم وعسف يؤدى إلى فساد الأخلاق وتفشى داء الكسل والاتكال على الجاه والسلطان والنفوذ ؛ فتنصرف النفوس من أجل ذلك عن العمل المجدى المثمر ، وتصد عن سبيل الجد والسعى والاجتهاد ؛ وبذلك تفسد أداة الحكومة وتتعطل الأعمال ؛ لأن من يتكلون على جاه أو وساطة يشعرون بأنهم مفضلون فى أخذ المناصب على غيرهم فيكسلون ولا يبتدعون .

والمثل الأعلى للحاكم يكون فى المحافظة على ما تملكه الدولة ، ومنع أقاربه من الانتفاع بجاهه إحقاقا للحق و إزهاقا للباطل . ومن أمثلة ذلك ما روى عن على بن أبى رافع قال : كنت على بيت مال على بن أبى طالب وكاتبه ، فكان فى بيت ماله عقد لؤلؤ كان قد أصابه يوم البصرة ؛ فأرسلت إلىّ بنتُ على بن أبى طالب تقول : بلغنى أن فى بيت مال أمير المؤمنين عقدَ لؤلؤ وهو فى يدك ، وأنا أحب أن تُعيرَنيه أتجمل به فى يوم الأضحى . فأرسلتُ إليها : عاريةً مضمونةً مردودةً بعد ثلاثة أيام يا بنت أمير المؤمنين . فقالت : نعم عاريةً مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام . فدفعته إليها ، و إذا أميرُ المؤمنين رآه عليها فعرفه فقال لها : من أين جاء لك هذا العقد؟ فقالت استعرته من ابن أبى رافع خازنِ بيت مال أمير المؤمنين لأتزين به فى العيد ثم أرده فبعث إلى أمير المؤمنين بجئته ، فقال لى : أتخون المسلمين يا ابن أبى رافع؟ فقلت : معاذ الله أن أخون المسلمين . فقال : كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذى فى بيت مال المسلمين بغير إذنى ورضاهم ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنها بنتك وسألتنى أن أعيرها العقد لتتزين به فأعرتها إياه عاريةً مضمونة مردودة على أن ترده سالما إلى موضعه . فقال رده من يومك و إياك أن تعود لمثله فتنالك عقوبتى ، ثم قال : و يل لابنتى ! ! لو كانت أخذت العقد على غير عارية مضمونة مردودة لكانت إذا أولَ هاشمية قُطِعَتْ يَدُهَا فى سرقة ، فبلغت مقالته ابنته فقالت له : يا أمير المؤمنين ، أنا ابنتك و بضعة منك فمن أحق بلبسه منى؟ فقال لها يا ابنة أبى طالب ، لاتذهبى بنفسك عن الحق . أ كُلُّ نساء المهاجرين والأنصار يتزين فى مثل هـذا العيد بمثل هذا العقد ؟ فقبضته منها ورددته إلى موضعه .

ومن باب فرط المحافظة على مال الدولة ما روى أنه لما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز قدّم إليه صاحب المراكب مركب الخليفة فأبى . وقال ائتونى ببغلتى .

ويقال إنه كان ينظر ليلا فى أمر الرعية فى ضوء السراج فجاء غلام له فحدّثه فى شأن خاص بالأمير فقال له عمر : أطفىء السراج ثم حدثنى ؛ لأن هذا الدهن من بيت مال المسلمين ، ولا يجوز استعماله إلا فى أشغال المسلمين .

والمثال الآتى يدل على شـدة التحرز من استخدام مال الدولة فى المصلحة الخاصة ومنع الأقارب من الانتفاع بالجاه أو القرابة .

روى النهرى عن أبيه قال : كان عمر بن عبد العزيز يقسم تفاح الفىء ، فتناول ابن له صغير تفاحة فانتزعها من فيه فأوجعه ، فسعى إلى أمه ، فأرسلت إلى السوق فاشترت له تفاحا . ولما رجع عمر وجد ريح التفاح فقال : يافاطمة ، هل أتيت شيئا من هذا الفىء ؟ قالت : لا ! وقصت عليه القصة فقال : والله لقد انتزعتها من ابنى لكأنما انتزعتها من قلبى ، لكن كرهت أن أضيع نفسى بتفاحة من فىء المسلمين .

١٠ — استقلال القضاء :

إن الحق والنزاهة قوام القضاء وأس العدالة ؛ فالقاضى الذى أقامه الله حكما بين الناس ليفصل فيما يعرض عليه من خصومات ومشاحنات — يحق الحق ويزهق الباطل ، ويحمى الأموال والحقوق ، ويعصم الدماء . فهو موئل الإنصاف ، وحصن العدل ، وموضع الرجاء والأمل .

وأول واجب عليه أن يتحرى الصواب فى أقواله ، والسداد فى أحكامه . ويقيم شعائر الدين والقانون ، غير هياب ولا وجل ولا متأثر بأى مؤثر يحيـد به عن جادة الحق ، أو يتنكب به سبيل العدل ، بل يكون فى جميع أحكامه مثال النزاهة والإخلاص والصـدق والتقوى ؛ ليتمتع كل فرد بحقوقه ، ويطمئن على شئونه . وأن يكون مستقلا فى قضائه : ويصدر أحكامه عن دليل وبرهان كما يرتضى ضميره وعقله ودينه لا متحيزا لفئة دون أخرى . ولا مؤثرا لحزب على حزب ، ولا يجعل للغضب عليه سبيلا مهما لقى من جفوة الخصم وتشديده فى المطالبة بحقه ؛ فإن المؤثرات المختلفة مدعاة إلى الظلم ومجلبة للبغى والعدوان ؛ إذ بها يختل نظره فيتجاوز الحق إلى الباطل فى حكمه ؛ لأن ما يؤثر على العقل ويغـير الفكر من محاباة أو وساطة أو غضب أو مجاملة يشغل القاضى عن استيفاء النظر ودقة البحث واستقراء الحوادث ، ويبعده عن طريق الهدى .

أما إذا خلص القاضى من جميع الشوائب ، وبعد عن كل المؤثرات أيا كان نوعها فانه يكون مثلا أعلى للقضاء العادل ، وهنا يمتد ظل الأمن على الناس فيسعدون وينعمون .

وأَحْرِ بمن نُصِبَ للفصل بين الناس فى الخصومات ، واستجلاء الحق ، واستيضاح الصواب — أن يكون حريصا على وضع الأمر فى نصابه ، وتَفَرُّسِ الحق واستخلاصه من بين الأقوال والمزاعم . ولا يتحقق ذلك إلا بأن يكون حاضر الذهن ، واعيا لكل ما يقال بين يديه ، يزنه بميزان الصَّيْرَفِىّ الناقد ، والعبقرى الحاذق ، مالكا زمام أمره ، جاعلا الحق نُصْبَ عينيه ، خاليا من المؤثرات والصوارف التى تحول بينه وبين ما جعل له ، عادلا : لا تستفزه الأهواء ، ولا يأسر لبه المَلَقُ والإطراء ، حليما لا تَحُلُّ حَبْوَتَه المكدرات ، أمينا غير متحيز ولا مائل ، فارغ النفس من الهموم والتحزب والشواغل والأهواء ، فبذلك يرتدع من جبروته وسطوته الظالم ، ويقوى الضعيف المحق ، ويضعف القوى المبطل ، وتستنير بضوء عدله مسالك الحياة الوادعة السعيدة ، ويتحطم على صخرته كل بطش وجور .

ومن الأمثلة الرائعة لاستقلال القضاء المثال الذى نسوقه إليك :

لما توجه على كرم الله وجهه إلى صِفِّينَ افتقد درعا له ، فلما انتهت الحرب ورجع إلى الكوفة وجد الدرع فى يد يهودى ، فقال لليهودى : الدرع درعى لم أهبه ولم أَبِعْهُ . فقال اليهودى : درعى وفى يدى ، فقال على : نسير إلى القاضى . فتقدم كل منهما إلى شُرَيْح القاضى ، فقال له شريح : قل يا أمير المؤمنين . فقال : نعم هذه الدرع التى فى يد هذا اليهودى درعى ولم أبع ولم أهبه ، فقال شريح لليهودى : ما تقول؟ قال : درعى وفى يدى : فقال شريح : ألك بينه يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم . قنبر والحسن يشهدان أن الدرع درعى . فقال شريح : شهادة الابن لا تجوز للأب . فقال على : رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته ! ! سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة) فقال اليهودى : أمير المؤمنين قدمنى

إلى قاضيه وقاضيه قضى عليه ! أشهد أن هذا هو الحق ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، وأن الدرع درعك يا أمير المؤمنين .

ولا غرو فالحق أبلج والباطل لجلج .

فمن هذا القصص تعرف إلى أى حد كان استقلال القضاء فى صدر الإسلام .

١١ ــ أثر الحكومة الصالحة :

قد بسطنا الكلام فيما مضى عن القواعد الأساسية التى قررها الإسلام للحكومة الصالحة ؛ حتى تكون حكومة رشيدة: تتألف برهبتها الأهواء المختلفة ، وتجتمع بهيبتها القلوب المتفرقة ، وتنقمع من خوفها النفوس المتعادية ؛ لأن فى طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه ، والقهر لمن عاندوه ما لا ينكفون عنه إلا بمانع قوى ورادع شديد . وأقوى زاجر تخشاه الرعية هو السلطان ؛ فقد جاء فى المأثور : (إن الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن) .

والحاكم إذا كان ذا خير أحب رعيته وأحبوه ، وإذا كان ذا شر أبغض رعيته وأبغضوه . وفى هذه المحبة خير عظيم ؛ إذ تجتمع القلوب وتتضافر القوى على النافع المفيد . أما البغض ففيه كل شر للحاكم والمحكوم ، روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وشر أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم) .

وإذا حصل البغض بين الحاكم والمحكوم انقسمت الأمة أحزابا ، وتفرقت شيعا ، وساد فيها الحسد والحقد والغش وكل رذيلة بغيضة مؤدية إلى تمزيق الوحدة ، وتغلب التباغض والشقاق والاختلاف والتفرق .

أما تبادل المحبة بين الحاكم والمحكوم فمن الدلائل على أن الحاكم يقيم العدل ويحرس الدين ، ويذب عن الأمة من غير تقصير ولا خيانة ، فمحبة الناس له دليل

على خيره ومراقبة ربه ، و بغضهم دليل على شره وقلة مراقبته . على أن العدالة هى قوام الإخلاص والطاعة و بذل النصرة وصدق الولاء من جانب المحكومين .

أما الحكومة غير الصالحة فهى التى لا تعدل فى أحكامها وقوانينها وحدودها ، وحكومة كهذه لا بد أن ينهار بناؤها ، وأن يترتب على عملها خراب البلاد وتفرق القلوب وانفصام الوحدة الاجتماعية وسوء الحال والمآل . ولذلك قال ابن خلدون فى مقدمته : (إن الظلم مؤذن بخراب العمران) ، و بَرْهَنَ على ذلك بأن الظلم إذا وقع على أفراد الأمة بطل كسبهم وفسدت آمالهم وتفرقت كلمتهم وساءت حالتهم . أما العدالة فهى التى تؤدى إلى اتحاد القلوب وتكاتف القوى على العمل النافع المفيد .

ومن آثار الحكومة الصالحة استتباب الأمن . إذ فى ظل الأمن العام تطمئن النفوس ، ويسكن البرىء ، و يأنس الضعيف ؛ فلا راحة للخائف ، ولا طمأنينة للحاذر ، لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ، ويحجزهم عن تصرفهم ، ويحول بينهم وبين ما به قوام أودهم ، وانتظام حالهم .

والخوف ضروب : فمنه الخوف على النفس ، ومنه الخوف على الأهل ، ومنه الخوف على المال ، وقد يستوعب جميع الأحوال . فاذا ما استقرت الحكومة وكانت صالحة أمن كل إنسان على عرضه وماله ونفسه ، ونال حقوقه كاملة موفورة ، فلا يتعدى عليه متعد ، ولا يغتصب حقه مغتصب ؛ فيعيش فى ظل الحكومة العادلة الرشيدة آمنا مطمئنا على كل ما يتصل به فى هذه الحياة .

وفى الحكومة غير الصالحة تنتشر الفوضى فى كل مكان ، ويكثر المغتصبون والظالمون والمتعدون على حقوق غيرهم ، فيكثر السلب والنهب والسرقة والاعتداء على الأرواح والأعراض والأموال ؛ لأن الرقابة من الحكومة ضعيفة ، ولأن هيبتها أقل من أن تزجر الفاسقين المعتدين الذين لا يَرْقُبُون إِلًّا ولا ذمة ، ولا يخافون إلا بطش الحكومة وعدلها فى إقامة الحدود ، و إعطاء الحقوق لأربابها .

ومن آثار الحكومة الصالحة انصرافُ الناس إلى مافيه رقيهم بسبب توفير أسباب اليسر ، فبه تنشط النفوس فى مختلف أحوالها ، ويقل فى الناس الحسد وينتفى عنهم

تباغض الفقر وتكثر المواساة والتواصل وتفشو الأمانة، ولا يتسنى لمصلح أن يتم إصلاحه فى أمة إلا إذا وفر لها أسباب الثراء ، ودرأ عنها دواعى الضيق والفقر ؛ لأن ثراء الأمة من قواعد صلاحها ودواعى استقامتها .

والحكومة الصالحة يكون لعملها أثر كبير فى نفوس النـاس من غرس الآمال فى قلوبهم . والأمل الفسيح هو الذى يحدو بالخلق الى عمارة الدنيا و إتمام إصلاحها فلا تزال تنمو خيراتها على ممر العصور . ولذا قال صلى الله عليـه وسلم " الأمل رحمة من الله لأمتى " . أما العدوان على النـاس فى أموالهم فذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها لمـا يرونه من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم . و إذا ذهبت آمالهم فى اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعى فى ذلك كما أورده ابن خلدون فى مقدمته . والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وتفرغ الناس لهـا وسعيهم فى المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين . فاذا قعد الناس عن المعاش كسدت أسواق العمران ، ونقصت الأموال ، واختلت حال الدولة والسلطان .

ومن أشـد الظلامات وأعظمها فى فساد العمران تكليف العمال وتسخير الرعايا فى الأعمال بغير حق، لأنهم إذا اتخذوا سُخْرِيًّا فى معاشهم بطل كسبهم وفسدت آمالهم، وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه فى عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليـه حقا لم يفرضه الدين فقد ظلمه . والظلم يؤدى لا محالة إلى خراب العمران، ولكن العدل والسداد فى الحكم والعناية بالرعية تجعل الناس ينصرفون الى ما فيه رقيهم و إسعادهم.

وما أشـبه قيام الحكومة الصالحة بالأعمال الضرورية التى فيها بقاء للرعية — بالجسم وما فيه من آلات وأعضاء تقوم بوظائفها الآلية التى فيها إبقاء للجسم وحفظ لصحته لكى يتفرغ العقل إلى الأعمـال الجـديدة التى فيها ترقيته وتربيته وتهذيبه . ولو شغل العقل وما فيه من قوى بالأعمال الآلية لصرفه ذلك عن التقدم والابتكار والاختراع ، فكذلك الحكومة تعمل على ما يحفظ بقاء الفرد، ويعمل هو من جانبه على ما يؤدى الى ارتقائه فيتم البقاء والارتقاء .

البدع والعادات المخالفة للدين

أكمل الله الإسلام وأتم شريعته كما أراد ، وخاطب رسوله الكريم بقوله :

« ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » .

فلم يترك القرآن صغيرة ولا كبيرة من قواعد الدين الأساسية إلا بينها ، ولم يفرط الله فيه من شيء كما قال جل شأنه :

« مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » .

وأوضحت السنة النبوية كل ما كان غامضا ، وشرحت كل ما كان دقيقا . قال صلى الله عليه وسلم : (ما تركت شيئا يقربكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به ، وما تركت شيئا يبعدكم عن الله تعالى إلا وقد نهيتكم عنه) ، فلم يترك النبي شيئا واجبا أو مستحبا إلا عمله ليقتدى المسلمون به فى أعمالهم .

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ » .

ولم يَدَعْ محرما أو غير مباح إلا بَيَّنَهُ وحذر منه .

وقد اشتمل القرآن الكريم والسنة النبوية على كل ما فيه سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة ، وأمرنا الله باتباع سبيله وما شرع من الدين القويم ، ونهانا عن اتباع غيره فقال :

« وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ " وَقَالَ : " وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » .

وبين أن طريقة رسوله صلى الله عليه وسلم هى الطريقة القويمة فقال :

« وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » .

فكل ما خالف ذلك فهو بدعة مُحْدَثة ، وكل بدعة ضلالة .

فالبدعة هى كل ما استُحْدِث فى الدين من العقائد والعادات السيئة . وقد عرفها العلماء بأنها طريقة فى الدين خارجة عما رسمه الشرع ، وتشبه الطريقة الشرعية ، فتلتبس بها أحيانا لدى صغار العقول وضعاف الأحلام الذين لم يتفقهوا فى الدين ، ولم يقفوا على أصوله وقواعده ، ولم يعرفوا أحكامه وأسراره : كالوقوف بخشوع أمام قبور الأولياء ، وطلب تفريج الكرب وقضاء الحوائج منهم ، وكإقامة الأذكار بالحالة الشنيعة وهى الرقص والتمايل ، وكالتمسح بالأعتاب والأضرحة ومقاصير الأولياء وتقبيلها والاعتقاد بشفاء المرضى بمجرد زيارتهم إياها . كل أولئك إثم وبهتان عظيم وافتراء على الدين بما ليس فيه .

أما ما استحدث بعد زمن الرسول صلى الله عليه وسلم من العلوم والفنون والصناعات فليس ببدعة ؛ لأن ذلك لا يأباه الدين ، بل يحث عليه ، ويشجع على السير فى طريقه ؛ لأن فيه صلاح الدين والدنيا .

غير أن فريقا من المبتدعين الضالين الذين اتبعوا أهواءهم ، وحادوا عن جادة الشرع — دسوا أشياء فى الدين وأوهموا الجهال أنها منه ؛ فضلوا سواء السبيل وأضلوا الناس ببدعهم وإفكهم "ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله؟" ونشروا هذه الضلالات ودَعَوْا اليها ، وشوّهوا الحقائق وموّهوا على العامة بأباطيلهم التى تفسد العقائد وتضعف الإيمان . ولذا نهى الله عن طاعتهم وأمر بمعصيتهم ؛ لأنهم يأمرون بالمنكر ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويسيئون الى الشرع ، فقال جل شأنه مخاطبا نبيه :

« وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ » .

وأى إساءة أكثر ، بل أى ضلالة أظهر ، من أن يدعى هؤلاء المبتدعون زورا وبهتانا أنهم جاءوا ليكملوا نقصا بدا لهم فى الشريعة فزادوا عليها ما ليس منها ، وألبسوه ثوبا مقبولا لدى السُّذَّج الغافلين ، وحاطوه بما يوهم أنه من الدين ، وافتروا أن ما جاءوا به يحسن أو يندب أو يجب العمــل به والله يشهد إنهم لكاذبون . قد افتروا على الله كذبا أن أضافوا إلى الدين أمورا مبتدعة صورها لهم خيالهم الباطل وجهلهم الفاضح . وقد ثبت أنه عليه الصلاة والسلام لم يمت حتى بين جميع ما يُحْتَاجُ إليه فى أمر الدين ، وأحاط الناس علما به ، وقال فى ذم البــدع وسوء عاقبتها : " من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " أى من اخترع شيئا فى ديننا ليس منه فهو مردود عليه لا يعتد به ، وقال : "عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين : تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدَثات الأمور ؛ فان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة" وقال فى خطبة له فى حجة الوداع : "فلا تَرْجِعُنَّ بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ؛ فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده ، كتاب الله وسنة رسوله " فالخير كل الخير فى اتباع هديه ، والشر كل الشر فى مخالفته والتنكب عن طريقه قال تعالى :

« فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

١ — النذر لغير الله :

انتشرت البدع فى هذه الأيام انتشارا كبيرا ، وتفاقم خطبها ، واشتد ضررها ، حتى كادت تتغلب على الأعمال المشروعة ، وتحل محلها لدى ذوى الأذهان السقيمة والعقول الضالة .

فمن هذه البدع النذور على نحو ما هو معروف من تقديم الشمع والأموال وغيرها الى الموتى من أولياء الله الصالحين بأن يقول الجاهل المبتدع : يا ساكن هــذا القبر إذا تم لى كذا فعلى نذر أن أذبح لك كذا ، أو أقدم اليك كذا (من المـال أو غيره).

والسر فى تحريم هذه النذور أنها تشبه أعمال الوثنية حيث يعتقد العامة أن الولى صاحب الضريح له نفوذ وسلطان على الكون، وأنه يستطيع أن يقضى المآرب، ويهيىء الأسباب ، ويدبر الأمور ، وهذا شرك بالله وضلال مبين ؛ لأن الأمر كله بيد الله وحده لا شريك له ، وهو القاهر فوق عباده وهو اللطيف الخبير ، لا رادّ لقضائه، ولا معقب لحكمه . فالإسلام ينكر هذه البدعة و يتبرأ ممن يعملونها ، ومن أقرها أو عمل على نشرها فهو ضال مضل يحمل وزره ووزر من اتبعه إلى يوم الدين .

والنذور لا تجوز لغير الله نبيا كان أو وليا ؛ لأن النذر عبادة وهى لا تكون لمخلوق . فإذا نذر لله ليصرف المنذور للفقراء أو ينفق فى جهة خيرية أُخرى فلا مانع ولا حرج .

والنذر المقبول هو أن توجب على نفسك لله عملا من أعمال الخير عند حصول ما تحب ، كأن تنذر صدقة أو صوما أو اعتكافا أو تهجدا إذا رزقت ولدا أو بلغت أملا بأن تقول مثلا : (اللهم إنى نذرت لك صوم يوم كذا أو صلاة أو صدقة على الفقراء فاقض لى كذا) بشرط أن يكون المرء خالص النية فى نذره، موقنا بالإجابة، راضيا بقضاء الله ؛ لأن الله يفعل ما يشاء .

« إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

ويسمى هذا النذر نذر الطاعة ، وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم من نذر طاعة لله أن يطيعه ويَفِىَ بنذره ، ونهى من نذر معصية أن يعصيه . فنذر الطاعة يجب الوفاء به، قال تعالى: (ولْيُوفوا نذورهم)، ونذر المعصية يحرم على الإنسان الوفاء به . فمن نذر إرشاد الجاهلين أو إنقاذ المظلومين أو مساعدة البائسين أو الجهاد فى سبيل الله ونشر دينه ومطاردة أعدائه وجب عليه الوفاء بما نذر . ومن نذر النكاية بعدوه بإراقة دمه أو اغتصاب ماله ، أو نذر شرب خمر أو لعب ميسر حرم عليه الوفاء.

وقد كان المشركون يذبحون لأصنامهم فمنعت الشريعة الإسلامية ذلك ؛ لأنه إشراك بالمتفضل وحده بجميع النعم ، وحرمت ما ذبح لها زجرا عن هذا الفعل الذميم .

ومن العجب أن نرى كثيرا من عامة الشعب ينذرون للأولياء والصالحين أموالهم ومتاعهم وبعض ما يملكون، ثم لا ننكر عليهم ذلك، حتى أصبح هذا الأمر عادة وعرفا والواجب على العقلاء أن يرشدوا هؤلاء الناس. وينقذوهم من الضلال، ويطهروا عقائدهم من الزيغ والفساد عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان).

والعقلاء ذوو الإيمان الصادق لا يرضَوْنَ عن هذه الأباطيل التى يتخذها أعداء الإسلام سلاحا يقاتلونه به وأداة لمحاربته، ويرمون الدين بما هو براء منه مستندين إلى ما يقع من بعض المسلمين الذين لم يعرفوا أصول الإسلام وقواعده على الوجه الصحيح والإسلام برىء من كل ما يرمونه به من السخافات والتُّرَّهات التى لم يأت بها وما أنزل الله بها من سلطان . وإن المسلمين الذين لم يتفقهوا فى الدين ولم يعرفوه معرفة صادقة ويأتون من البدع المستحدثة ما ينافى أوامر الله ونواهيه — هم فى حالة تشبه حال المعادين له؛ لأنهم يحطون من قيمته ويضعون من قدره بهذه الأضاليل ، وعلى الوعاظ والمرشدين أن يعملوا على إحياء السنة الشريفة ، وأن يجاهدوا لإعادة مجد الإسلام والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

٢ — المبالغة فى الترف :

الحياة لا تتطلب أكثر من الطعام المغذى واللباس الواقى والمسكن الصحى والهواء النقى والحركة . بيد أن النفس الشهوانية تشتط فى المطالب الكمالية التى تبعدها عن دائرة الاعتدال الحميد .

ومن الميسور لكل إنسان أن يروض نفسه على القصد فى الأمور والاعتدال فى الطلب ، ويأخذها بالتوسط فى الإنفاق فى الطعام والشراب واللباس والمسكن والزينة والمعيشة، فلا يتغالى فى الطعام وأنواعه؛ فرب قليل منه جيد التغذية رخيص الثمن خير من كثير مختلف الألوان ثقيل على المعدة باهظ الثمن، ولا يلبس من الثياب

ما ليس بحاجة إليه، ولا يسكن من القصور ما لا طاقة له بأجرته ، ويلق عن نفسه الإفراط فى التجمل والزينة ؛ فإن قيمة المرء بنفسه لا بثيابه، وإن جماله بعقله وأدبه .

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مثلا كاملا فى الاعتدال فى الطعام ونحوه .

قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : لم يمتلىء بطنه شِبَعا قط ، وكان لا يسأل أهله طعاما ولا يَتَشَهّاه .

فالعاقل من كان وسطا بين الإسراف والبخل ؛ لأن الإسراف مهلكة للمال مجلبة للفقر حائل بين المرء وأداء ما عليه من واجبات لدينه وأهله وعشيرته ووطنه ؛ ولأن البخل مجلبة لذم الناس وسخطهم ، وفيه حبس للمال عما خلق لأجله من التداول فى قضاء المصالح الخاصة والعامة .

بين تبذيرٍ وبخل رُتْبَةٌ وكلا هذين إن دام قتَل

ومن مزايا الاعتدال حفظُ الصحة ، فما اتصف إنسان بهذا الخلق إلا أصبح موفور القوة جيد السلوك ؛ لأنه لا يُفْرط فى الملذات حتى يفقد الصحة والعافية .

وبالاعتدال يصان المال ويحفظ من الضياع ؛ لأنه يبعد الإنسان عن الإسراف الذى يوقع فى الدين ومذلته ؛ فمن اعتدل فى إنفاقه حفظ ماله وصان كرامته .

كذلك بالاعتدال يكتسب المرء خلق الاستقامة التى هى أساس النجاح فى جميع الأعمال وعنوان الكمال النفسى ووسام الفضل وشارة الشرف . فبالاستقامة يعمل بأوامر الدين الحنيف الذى ما أمر إلا بالخير وما نهى إلا عن الشر، وتعف نفسه عن المحرمات والمشتهيات، وتقف عند حد القصد فى الأمور فلا إفراط ولا تفريط .

وما نشأ سخط الناس إلا من شرههم وعدم قناعتهم بما يجدون، وحبهم للمبالغة فى الترف والظهور . ومن العجب أن الدابة إذا شبعت تنام ملء عينيها ، ولكن الإنسان لا يهدأ إذا هو أثرى بل تزيد شراهته وتتعدد أمانيه .

ومن هذا ترى أن أكثر الناس سخطا على العيش هم أكثرهم سعة وأوفرهم فى أسباب الاغتباط والنعيم ، وتلك حجة على أن السعادة ليست فى الغنى وكثرة القصور والضّياع بل فى الرضا والاغتباط . والنفس لا تقف عند حد مهما نالت من أمانيها .

والرغبة فى الإنسان تمتص دمه وتنخر عظامه، وهذا مشاهد ومحقق؛ فإن السكير المدمن لا يكف عن الشراب مهما كرع ، ومهما التهب دماغه وتمزقت أحشاؤه . وإن من يملك الألوف يطمع فى سواها . والأمانى تتجدد والرغبات تزداد .

وهناك كثير من الفقراء تتوق نفوسهم إلى عيش ذوى الثروة فيخرج العامل عن حده ، ويقامر الموظّف فيضيق ذرعه وتسوء عاقبته .

ومن الناس من يضيق صدره بمطالب زوجه التى لا نهاية لها فتسوء المعيشة بينهما ، ولو اعتدلت فى مطالبها ما خسرت عطف زوجها وحبه ، ومثل هذا الرجل كى ينسى أحزانه يلجأ إلى الخمر والمقامرة وسلوك سبيل الرذيلة فيعز شفاؤه وتسقط أسرته . ومن الآباء من يتورط فى حمأة مطالبه فينفق كسبه فى لذاته وشهواته ، ويترك أولاده حفاة عراة يَتَضَوَّرُونَ جوعا .

ولو اعتدل الناس فى أمورهم لكانوا فى غنى عن الاستياء . وأَنَّى لهم أن يعرفوا طريق السعادة والهناءة وهم على هذا الشطط القبيح ؟ إن الخضوع لشهوة النفس يودى بالسعادة؛ فالاستدانة والربا وبيع الزرع والضرع سبب الفقر الذى تسوء به الحال ويحتم الشقاء، وهذا ينشأ من المبالغة فى الترف .

أما من ألف القناعة والرضا باليسير فإنه يكون قليل الاهتمام بظواهر الغنى والجاه فيعيش سعيدا مطمئنا ، وإذا نزل به الفقر قابله برباطة جأش، وحاول التخلص منه بالوسائل المشروعة .

ولْيَتَذَكَّر العاقل أن للظهور ثمنا باهظا يُدفع من المال وراحة الضمير والفكر وهو ثمن لا يستهان به ، ولا يقوى على دفعه امرؤ بدون أن يعكر صفو هناءته .

ومن أسوإ الأمور الفاشية فى هذا العصر حب الشهرة والظهور، فلا يكاد الباحث يجد بين النـاس من لم يتأصل فيه هذا الداء حتى إنهم ليخالون الهـدوء والسكون عارا لا يمحى ؛ فتراهم يتواثبون إلى الظهور والاعلان عن أنفسهم بمـا فى وسعهم وعلى قدر ما تفتق لهم الحيلة ظنا منهم أن الرفعة والشرف فى الظهور ، والحطة والهوان فى الخفاء ، بل نرى شأن من تجاوزتهم الشهرة وهم يطمعون فيها شأن الغرقى تحطمت بهم السفينة فألقتهم على صخر فى وسط المحيط فوقفـوا يُلَوِّحون بثيـابهم ويبلغون السماء بصراخهم ليسمعهم سامع أو يشعر بوجودهم كائن حى .

إن جنون الظهور يصيب كثيرا من الناس على صور مختلفة، فيضحون براحة الأسرة فى سبيل التمتع لحظة بما لا يفيد وجوده ولا يضر عدمه، ولا تعظهم مصائب الأيام . فكم من أموال بذلت فى سبيل الترف ! ! وكم من ثروات ضاعت فى إعداد معدات النعيم قبل أن يحصل المبدد على ما أراد .

إن من الجهل المطبق خروجَ الإنسان عن المألوف للحصول على ما لا تدعو إليه ضرورات حياته . وإن سـعادة الأسرة ينقصها الاعتدال والحكمة ، وهذا يتطلب لرياستها أفرادا معتدلين لهم من التربية ما يكفل توفير السعادة لأسرهم ، فإن ضعفت الرءوس ضعفت الأسر وارتج معها أساس الإصلاح .

حب الظهور أخذ يقوض دعائم الأسر ويتسرب إليهـا تحت زى المدنية ومقتضيات الضرورة وما أكثر ما يروج فى فرص الأعراس والمآتم .

إن الكثير من الشبان عند زواجهم يبذرون ذات اليمين وذات الشمال فى فرش الدار وتأثيثها على آخر طراز مبتدع، ليتمتعوا أنفسهم بمثل ما يرونه فى الأندية والمجتمعات، فعم الفساد كل الطبقات، وأصبح من المدنية هجر الدور لتعمير الحانات أو المواخير، ولم تخل من ذلك الضياع والقرى ، فلو تساءلت عن السبب الذى يدعو القروى إلى هجر داره وغشيانه الحانات وتأففه من المجتمعات العادية على ضوء القمر لكان

الجواب : إنه التحضر . اللهم إن كانت الحضارة هى هـذا الفساد الذى يخرب الدور، ويفسد العقول، ويقتلع السعادة من البيوت الآهلة فبئست المدنية، وأفضل منها البداوة والهمجية .

المدنية الصحيحة بعيدة عن كل هذه النقائص بعد الخير عن الشر . وما هـذه المظاهر الكاذبة إلا إفراط لإرضاء شهوة النفس ، وتقليد نشأ عن ضعف الإرادة وعن إهمال فى واجبات الأسرة، وترك الاعتدال فى وسائل العيش ،وأسباب السرور .

بالترف لا تسمـو الهمم والآمال إلى التقدم والإصـلاح ، ولا تتوجه النفوس إلى أسـباب العيش الهنىء ، بل تقتصر على ما هى فيه من النعيم وخصب المعيشة، وتسكن إلى الدعة والراحة ، والأخذ بأبهـة المبانى والتأنق فى الملابس ؛ فتذهب خشونة البداوة ، وتضعف العزائم ، وتخمد جذوة الشجاعة ، وينغمس الناس فى بسطة الرزق ، وينشأ بنوهم وأعقابهم فى مثل ذلك من الترفع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم ، ويستنكفون عن القيام بسائر الأمور الضرورية والكمالية حتى يصير ذلك خلقا لهم، وسجية فيهم ؛ فتضعف أخلاقهم، وتسوء حالهم ؛ وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الهلاك و إشراف دولتهم على الانقراض .

وذلك أن الأمة المترفة يتجاوز أفرادها ضرورات العيش وخشونته إلى نوافـله ورقته حتى تصير تلك النوافل ضرورية . فينْزِعون إلى التأنق فى المطاعم والملابس والفرش والآنية ، ويفاخرون فى ذلك غيرهم . ويباهى خلَفُهم فى ذلك سـلفهم إلى أن يبلغوا من ذلك الغـاية ، ثم يقصرون عن المتاعب التى يتكلفونها فى طلب الأعمال، ويُقْبلون على الاستمتاع بنعم الدنيا ، ولا يزال ذلك يتزايد، فتزيد نفقاتهم، ولا يفى دخلهم بخرجهم؛ فيهلك الفقراء، وتحيط الديون بثروة المترفين. وذلك مجلبة للدمار والهلاك، قال تعالى :

« وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيراً » .

٣ — تبرج النســاء :

عَمِلَ الإسلام على تأديب الإنسان ذكرا كان أو أنثى ليجعل منه مثلا صالحا ؛ فلا يصدر منه ما يوجب الذم واللوم ، ولا يقع منه ما يخل بمروءته ، أو يَحُطّ من قدره ، فَبَيَّنَ أكمل الآداب التي يجب على الرجال والنساء أن يتخلقوا بها ، ويتحلّوا بحلاها ، ونهى النساء عن التبرج ، والمبالغة فى اتخاذ الزينــة والظهور بها ؛ فإن ذلك يؤدى إلى الفساد ، وأَمَرَهُنَّ أن يَغْضُضْنَ أبصارهن ويمنعنها من النظر إلى غير أزواجهن ، وألا يُظْهِرن شيئا من زينتهن للأجانب إلا ما ظهر منها ولا يمكن إخفاؤه كالثياب الظاهرة والخاتم ، وأن يُلْقِينَ على صدورهن ونحورهن مقــانع ليسترنها عن أعين الناظرين فلا يرون منها شيئا ، ولا يبدين زينتهن إلا لمن نصه القرآن الكريم إذ يقول الله تعالى :

« وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُولِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ » .

ووجه جواز إظهار زينتهن لمن ذكروا فى هذه الآية أنهم محارم لهن ، فيجوز للمرأة أن تظهر لهم بزينتها ولكن من غير تبرج بل بالحشمة والوقار ؛ لعــدم توقع الفتنة منهم ، ولأن المرأة تحتاج إلى صحبتهم فى السفر للنزول والركوب وغير ذلك .

وقد شدد الشرع فى عدم إبداء الزينة لما يترتب على ذلك من المفاسد حتى نهى المرأة أن تضرب برجلها الأرض ليعلم ما خفى من زينتها فقال تعالى :

« وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ » .

وقد روى أن امرأة فى صدر الإسلام اتخذت خَلخالا من فضة ، ولبست تحته جِزْعًا (وهو خرز فيه سواد وبياض) فوقع الخلخال على الجزع فأحدث صوتا له رنين ، فأنزل الله هذه الآية الكريمة السابقة . وطبعى أن الخلخال الحديث الذى تتخذه بعض النساء ويضعن فيه ما يشبه الجلاجل لكى يسمع صوتها فى أثناء السير هو من النوع الذى حرمه الإسلام . ومثل ذلك ما لو كان شىء من زينة المرأة مستورا فتحركت لِتُظْهِرَ ما خفى ، أو مَسَّتْ طيبا عند خروجها من بيتها ليشُم الرجال طيبها ؛ فإنه يدخل تحت هذا النهى أيضا . وكذلك ما يلبسه أكثر مترفات النساء فى زماننا فوق ثيابهن إذا خرجن من بيوتهن ، ففيه من أنواع الزينة ما يبهر العيون ، ويأخذ بألباب ضعاف العقول ، وقد عمت بذلك البلوى ؛ فإننا لنرى كثيرا من النساء اللواتى يسرن فى الطرق وهن متبرجات ، عليهن أثواب شفيفة ذات ألوان تخطف الأبصار ، وقد أخذن من حلى الذهب والفضة واللآلىء والجواهر ما فيه فتنة للناظرين . غير مباليات بما يوجبه الحياء والأدب والدين .

وعن السيدة عائشة أم المؤمنين أنها قالت : دخلت أسماء بنت أبى بكر على النبى صلى الله عليه وسلم وعليها أثواب رقاق ، فأعرض عنها وقال ما معناه : يا أسماء ، إن الفتاة إذا بلغت مثل سنك (وكانت أسماء فى سن المراهقة) لم يصلح أن يرى منها إلا هذا (وأشار إلى وجهه وكفيه) .

فهذا هو الشرع الذى يحث على عدم التبرج لما يترتب عليه من مفاسد وأضرار.
ومثله مما عمت به البلوى عدم احتجاب أكثر النساء عن أصدقاء أزواجهن وعدم

مبالاة الأزواج بذلك . وقد يلبسن من الثياب ما لا يحل، ويرتدين من الزينة ما لا يجوز. ويظهرن بهذا المنظر غير اللائق أمام أعينهم وهم ليسوا من المحارم . وهنا تكون الطامة الكبرى والمصيبة المؤلمة .

ومن أجل ذلك نهى الشرع عن التبرج وجاء القرآن الكريم ذاما له فقال تعالى:

« وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَـٰهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ » .

فالتبرج بدعة قبيحة تؤدى إلى الهلاك والدمار .

٤ — تشبه الرجال بالنساء ، وتشبه النساء بالرجال :

تقضى الحياة الإنسانية أن يكون للرجل نصيب من الأعمال يزاوله ، وشئون خاصة يضطلع بها ، وأن يكون للمرأة أعمال أخرى توائم فطرتها ووظيفتها فى الحياة .

فالرجل يقود الجيش ، ويجوب الأقطار ، ويدافع عن الأهل والوطن ، ويقارع الأبطال، ويحمى الذمار . ويسعى فى مناكب الأرض لجلب الرزق، واقتناء الثروة من طرقها . وذلك يقتضيه قوة فى الأعضاء ، وخشونة فى العيش ، وجلدا وصبرا ، وجيئة وذهابا ، واختلاطا وصَخَباً .

والمرأة تربى الأبناء ، وتقوم على شئون البيت والمال والخدم ، وهى سَكَنٌ للرجل وموضع لِسِرِّهِ وأُنْسِهِ . وذلك يستدعى أن تتفرغ لمهامها المتنوعة ، وتلزم البيت طويلا ، وتقلل من الاختلاط ، كما أنها بوصفها زوجة تحتاج إلى شىء من التجمل ، وقدر كاف من الخَفَر .

فطبيعة كل منهما البشرية تحتم عليه أن يلزم حده، ويقوم بالنصيب الذى أُلْقِىَ على كاهله ؛ لتسعد الأسرة وتسعد الأمة ، وكل محاولة على خلاف ذلك من أى واحد منهما مَقْضِىٌّ عليها بالخيبة والإخفاق .

لذلك كان من معارضة الفطرة أن تسترجل المرأة ، أو يحاكى كل منهما الآخر فيما هو من خصائص طبيعته ؛ إذ الرجولة تأبى أن يكون الرجل ناعم الصوت ، لين الملمس . والشهامة لا تسيغ أن يخضب الرجل بنانه ، ويتزيا بزى النساء ، أو يكون قعيدة بيت . كما أن الأنوثة لا تحتمل أثقال الحياة وأعباء المكافحة والاختلاط ، حتى تحاول المرأة مجاراة الرجل فيها . وخليق بكل صنف أن يلزم جادته ، ويرضى بنصيبه ، ويضطلع بما كلفه ، وإلا التوى المقصد ، واضطرب نظام الأسرة ، وساءت العقبى . على أن شيئا من ذلك لا يمنع النساء من التزود من العلم والثقافة عامة ، ومن العلوم والفنون الخاصة بالحياة المنزلية : من حيث الصحةُ والتدبيرُ وواجباتُ الأمومة ، وليس شيء من ذلك يمنع النساء — وبخاصة الفقيرات منهن — من الإلمام بصناعة أو حرفة يَسْتَعِنَّ بها على نوائب الزمان إذا لم يجدن من يَكْفُلُهُنَّ ؛ فقد دعا الإسلام وحث الرسول على تعليم المرأة وتثقيفها وإعدادها إعدادا حسنا ؛ فليس العلم والتعليم وإنارة العقول من باب التشبه بالرجال المحظور ، وإنما هو مدعو إليه مطالب به ؛ فإن الإسلام دين العلم والنور والعمل للدنيا والآخرة .

عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم . وجده لأبيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ولد بحلوان من ضواحى مصر سنة ٦٠ من الهجرة، وكان أبوه واليا على مصر، ولما شب أرسله إلى المدينة ليتأدب بأدب أهلها ، وكانت وقتذاك مجمع الفقهاء والمحدثين . فأخذ العلم عن علمائها وهم رجال الأمة الذين عرفوا بالصلاح والورع والعلم فى ذلك العصر ، فلا عجب إذا نشأ عمر على مثال مربيه تقيا ورِعا .

ولما مات أبوه دعاه عمه عبد الملك إلى دمشق وزوّجه بنته، وأقام فى عاصمة الدولة بين مظاهر الملك وأبهته ، فجمع إلى صلاحه وتقواه زينةَ الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، فكان تقيا متبسطا فى النعمة : يتأنق فى ملبسه ومطعمه ومشربه .

وقد ولاه الوليد بن عبد الملك على المدينة فكوّن فيها حكومة شورية بقيت ببقائه ، ذلك أنه لما قدم المدينة قدم الناس عليه يهنئونه ، فلما صلى الظهر دعا عشرة نفر من فقهاء البلد: منهم عروة بن الزبير، وسالم بن عبد الله بن عمر، وخارجة ابن زيد ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال لهم : إنى دعوتكم لأمر تُؤْجَرُونَ عليه ، وتكونون فيه أعوانا على الحق : ما أريد أن أقطع أمرا إلا برأيكم أو برأى من حَضَر منكم ، فإن رأيتم أحدا يتعدى أو بلغكم عن عامل لى ظُلَامَةٌ فأُحَرِّجُ[1] بالله على أحد بلغه ذلك إلا أبلغنى . فجزَوْه[2] خيرا وانصرفوا .

ومكث واليا على المدينة أربعَ سنين ثم عزل . وقد أفادته هذه الولاية الصغيرة دُرْبَةً على تولى شئون المسلمين بعد ، ولهذا كانت تربية عمر التى نشأ عليها من خير ما يربى عليه الملوك .

---

(١) أحلف الأنم (٢) قالوا له : جزاك الله خيرا

توليته الخلافة :

ولى الخلافة بعهد من سليمان بن عبد الملك . ذلك أنه لما ثَقُل عليه المرض استشار بعض خاصته فيمن يَعهد إليه من بعده ، فقال له أحدهم وهو رجاء بن حَيْوَة : يا أمير المؤمنين، اتق الله، فإنك قادم على الله وسائلك عن هذا الأمر وما صنعت فيه . قال : فمن ترى ؟ قال: عمر بن عبد العزيز. قال : أصبت ، جئنى بصحيفة، فأتاه بصحيفة فكتب فيها عَهْدَ عمر من بعده ، ثم دعا برجال فأخبرهم أنه قد عهد بالخلافة إلى من عَيَّنَهُ بهذه الصحيفة ، وأمرهم أن يشهدوا ويختموا عليها ، ففعلوا . ثم لم يلبث سليمان أن مات ، فقام رجاء بن حيوة وفض الصحيفة وتلا ما فيها على الناس ، فقام رجل من أخوال عمر بن عبد العزيز وأخذ بذراعه وأقامه ، فقال عمر : والله ما اللهَ أردت بهذا ، ولن تنال بها منى دنيا . ولما دُفن سليمان ونودى بعمر خليفة أُتِىَ بدواب الخلافة فلم يركبها وركب دابته التى جاء عليها ، ومُهِّدَتْ له الفُرش والبسط التى كان يجلس عليها الخلفاء فى بيت الخلافة فأبى الجلوس عليها . ثم خرج إلى المسجد فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد فإنه ليس بعد نبيكم نبى ، ولا بعد الكتاب الذى أنزل عليه كتاب ، ألَا إن ما أحل الله حلال إلى يوم القيامة ، وما حرمه الله حرام إلى يوم القيامة ، ألا إنى لست بمبتدع ولكنى متبع، ألا إنه ليس لأحد أن يطاع فى معصية الله ، ألا إنى لست بخيركم ، ولكنى رجل منكم غير أن الله قد جعلنى أثقلكم حِمْلا .

وقد احتذى حذو الخلفاء الراشدين ، فخلع ما كان فيه من النعيم ، ونظر إلى الخلافة نظرا صادقا ، فعلم أن عبئها ثقيل ، وتكاليفها شاقة .

ولى الخلافة وهو يعلم أن بعض الخلفاء قبله ظلموا الرعية واعتدَوا عليها ، فجعل أول همه رد هذه المظالم ، وبدأ بنفسه فرد إلى بيت المال ما كان تحت يده من أرض أو متاع ، بل إنه رد فص خاتم كان قد أهداه إليه الوليد بن عبد الملك من مال المسلمين ، ثم بأهل بيته وأقاربه فردّ ما كان لديهم من

أموال المسلمين إلى أصحابها أو إلى بيت المال . كما باع ما كان له من عبيد وأموال فبلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار بجعله فى سبيل الله . ثم عزل كثيرا من عمال الخلفاء قبله ، وولى مكانهم من يَعْهَدُ فيهم العدل والإنصاف . وكان مما كتبه إلى واليه على المدينة محمد بن أبى بكر بن حزم : وإياك والجلوس فى بيتك : اخرج للناس ، فآس بينهم فى المجلس والمنظر ، ولا يكن أحد من الناس آثَرَ عندك من أحد ، ولا تقولن : هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين ؛ فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندى اليوم سواء .

وكان بنو أمية يَسُبُّونَ على بن أبى طالب على المنابر عقب خطبة الجمعة من عهد معاوية ، فلما تولى عمر بن عبد العزيز ترك ذلك ، وكتب إلى عماله فى الأمصار بتركه ، وجعل مكان سبه (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية ، وكان لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، محبا للعدل والقسط ، يبغض الجور والعسف ، حريصا على مال المسلمين ، زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة . كان دخله قبل الخلافة أربعين ألف دينار فردّ ذلك كله وخصص لنفسه درهمين فى اليوم . وكان إذا نظر فى شئون المسلمين ليلا أضاء شمعة من بيت المال فإذا ما انتهى منها وأخذ فى شئون نفسه أو بيته أطفأها واشعل شمعة من ماله الخاص .

وأمر بجمع أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم فى كتاب كما جمع أبو بكر القرآن

وصفوة القول : أن الناس لم يروا عدلا شاملا كعدله إلا ما كان من جده عمر بن الخطاب حتى رتعوا فى بحبوحة الأمن والخِصب وتمنَّوا لو خُلِّد فى الخلافة. وقد بلغ من شدة خوفه من الله أنه يكون فى الفراش نائما فيذكر الشئ من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور فى الماء ويجلس ويبكى .

موته :

لما رأى أقاربه أنه ضيق عليهم السبل ، ولم يمكنهم من أموال الدولة ورقاب الناس يستبدون كما يشاءون ، ويبسطون سلطانهم على الضعفاء وعامة الأمة — تألبوا عليه ، ودسوا له السم فى الطعام ، فمات فى سنة ١٠١ هجرية .

الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه

هو النعمان بن ثابت . ولد بالكوفة سنة ثمانين من الهجرة ، ونشأ بها ، وأخذ العلم عن فطاحل العلماء بها ، وأدرك بعضا من أصحاب رسول الله ، وتلقى عنهم كثيرا من الحديث والأحكام الشرعية . رزقه الله غزارة فى المادة ، وسَعة فى العلم ، وفهما للقرآن والسنة ، وقدرة على استنباط الأحكام الفقهية منهما . وكان مع ذلك ورعا تقيا ، يكرم إخوانه وتلاميذه ويواسيهم ، حسن الهيئة ، مهيب الطلعة ، شديد الخوف من الله ، عفيف النفس ؛ أراد أمير العراق أن يجرى عليه راتبا من بيت المال كغيره من العلماء فأبى تعففا وزهدا .

وكان من أكثر الناس تعبدا بالليل ، وتلاوة للقرآن ، وتوخيا للكسب من طريق شريف حلال . آثر أن يعيش تاجر ثياب يأكل من ربحه على أن يتولى أى منصب فى الدولة ، وكان يواسى بما يجنيه من الربح شيوخه وإخوانه فى كرم أخلاق ومروءة .

كان له جار يشتغل طول النهار فاذا جاء الليل رجع إلى منزله وقد حمل معه لحما فيطبخه ، أوسمكة فيشويها ، ثم يأكل ويشرب حتى يسكر ويغنى بصوت مرتفع :

أضاعونى وأىَّ فتى أضاعوا ليوم كريهة وسِداد ثغر

وكان يظل كذلك حتى ينام . ويعاود صنيعة كل ليلة . فكاد ذاك يفوت على أبى حنيفة خشوع الصلاة وتلاوة القرآن . وفى إحدى الليالى لم يسمع صوته كالعادة فسأل عنه ، فقيل له : إن العسس (عسكر الليل) قبضوا عليه وأودعوه السجن ، فلما أصبح أبو حنيفة ركب بغلته ثم ذهب إلى دار الأمير وشفع فى جاره ليطلقوا سراحه ، ولم يبرح إلا بعد أن أطلقوه . فقال له أبو حنيفة : يافتى ، هل أضعناك كما كنت تزعم فى غنائك ؟ فقال له الرجل : جزاك الله خيرا عن محافظتك على جارك ، ثم تاب فلم يعد إلى سوء فعله .

وقدعرض عليه أميرالمؤمنين أبو جعفر المنصور أن يقلده منصب قضاء الكوفة فلم يقبل . فحلف عليه ، فحلف أبوحنيفة الا يقبل ، فكرر الخليفة الحلف ، فكرر أبو حنيفة الإباء والحلف ، فقال له وزير الخليفة : أمير المؤمنين يحلف وأنت تحلف ؟ فقال : إن أميرالمؤمنين أقدر منى على كفارة يمينه ، فضربه وأمر بحبسه وقيده بأثقل الحديد ، فلم يزده ذلك إلا إباء . فجاءته أمه وقالت له : يانعمان ، إن علما لم يُفدك غير الضرب والحبس لحقيق بك أن تنفر عنه . فقال : ياأماه ، لوأردت الدنيا ما ضُرِبت ، ولكن أردت وجه الله وصيانة العلم . وذلك مخافة أن يجور فى حكمه ، أو يحابى أميرا أو عظيما فى قضائه . وظل فى السجن حتى مات سنة ١٥٠ هجرية

مذهبه :

وأبو حنيفة هو أحد الأئمة الأربعة ، وصاحب المذهب المشهور باسمه . استنبط الأحكام من القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وقياس الأمثال على نظائرها .

ولقد كان هذا المذهب منتشرا فى بلاد العراق وفى كثير من البلاد الإسلامية . وذلك أن الرشيد لما تولى الخلافة عين أحد أصحاب أبى حنيفة ، واسمه أبو يوسف كبيرا للقضاة ، ووكل اليه تولية القضاة فى الولايات ، فكان لا يولى إلا من كان على مذهبه ، واستمر هذا المذهب فاشيا فى مصر و بلاد فارس والروم و بعض بلاد اليمن مدة الخلفاء العباسيين . ولما دخل الفاطميون مصر عملوا على إزالة كل أثر للدولة العباسية ، فتضاءل المذهب الحنفى من جراء ذلك ثم عاد الى الظهور فى عهد الأيوبيين .

ولما استولى العثمانيون على مصر حصروا القضاء فى أهله ، فأصبح مذهب الدولة وأمرائها ، ورغب فيه كثير من أهل العلم ليكون وسيلة لتولى القضاء . وهو المذهب الرسمى للدولة المصرية ، والمتبع فى القضاء والافتاء فيما عدا بعض المسائل فى الأحوال الشخصية : أخذت من المذاهب الأخرى تيسيرا على المتقاضين ، ودرءًا لأضرار كثيرة كان الناس يعانونها فى تقاضيهم . ومما أُخذ من غير مذهبه التطليق لعسر الزوج وفقره وغيبته وسجنه ، واعتبار الطلاق الثلاث بلفظ واحد طلقة واحدة ، وعدم استحقاق المطلقة نفقة عدة لأكثر من سنة .

وجملة القول : أن أبا حنيفة كان إماما فى علمه ، أسوة فى خلقه وسيرته .

الآيات القرآنية الكريمة

(١) قال الله تعالى :

«لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ، قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ، فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا . وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ . أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾»

(من سورة البقرة)

المفـــردات

إكراه : قهر وجبر . الرشد : الصواب والحق . الغى : الخطأ والضلال .
الطاغوت : ما يطغى الانسان من الأصنام أو الشياطين أو قرناء السوء .
الوثق : المحكمة القوية . انفصام : انقطاع . ولى : ناصر ومعين .
خالدون : ماكثون أمدا طويلا .

الشرح

مضى على الناس حقبة من الزمن كانوا يعتقدون أن تعاليم الدينيـة والشرائع السماوية لا تصل إليها عقولهم ، ولا تبلغ فهمَها مداركُهم ، وما عليهم إلا أن يخضعوا لها ، و إلا أن يتلقوا ما يلقنهم الرؤساء بالقبول والتسليم ، ومن يجرؤ على محـاولة فهمها أو البحث بعقله فى حِكَمِها ومداولاتهـا تعرّض لسخط الرؤساء ولأنواع الاضطهاد والأذى وكان من الخاسرين .

فلمـا أرسل الله سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم للناس يتـلو عليهم آياته ، ويطهرهم ممـا كانوا فيه من ضلال الحيرة والجهل — أخرجهم من الظلمـات

إلى النور، وأنقذهم من مهاوى الذلة والخضوع، وخاطب عقولهم، وهاب بأفئدتهم كى تفهم ما جاء به، وتتخلص من ربقة التقليد والاستسلام، وتتدبر فيما يدعوهم إليه من توحيد الله والإيمان بجميع الرسل وما جاءوا به. وكان مدار مخاطبته إياهم وإقناعهم على الدليل؛ حتى يكون إيمانهم واتباعهم إياه عن يقين ثابت وإيمان راسخ.

فالدين الإسلامى دين الفطرة السليمة والحجة والبرهان، ولذا كثرت فى القرآن الآيات الدالة على وجوب التفكر والتدبر فى بدائع المخلوقات وغرائب الموجودات، ليُستَدَلَّ بها على وحدانية موجدها وقدرته وعلمه.

وأى عاقل مفكر يتدبر قوله تعالى:

«إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾»

(من سورة البقرة)

وقوله تعالى:

«وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً، نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا. إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾»

(من سورة النحل)

وقوله تعالى :

«وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ
صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ
فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ »

(من سورة الرعد)

وقوله تعالى :

« أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا
مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾
وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ
بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ »

(من سورة قٓ)

نقول : أى مفكر يتدبر هذه الآيات وأمثالها — وهى كثيرة — ثم يبق عنده تخالج فى وحدانية موجد هذه المخلوقات ، وعظيم قدرته ، وواسع علمه ومحكم تدبيره ، وأن بيده تصريف كل شيء ، أو يتردد فى تصديق من أنزلت عليه هذه الآيات المحكمات ، وأنه رسول رب العالمين ، ومنقذ الناس من ضلال الكفر وظلمات الجهل إلى نور الحق والإيمان .

دين هذا شأنه وتلك أسسه — لا يأخذ الناس بتعاليمه قسرا ، ولا يكرههم عليها إكراها ، ولكن بالإقناع واليقين ، تدعو مبادئه إلى الهداية والرشاد ، وتنير السبيل أمام السالكين ، وتعصم من الخطأ والزيغ فى العقيدة ، وتكفل السعادة فى الدنيا والآخرة لمن تمسك بها .

فمن يجتنب ما يُضل ويطغى من الأصنام وشياطين الإنس ، ويؤمن بالله وحده ، ويلتمس منه الرشد والهداية ، فقد تعلق بأقوى الأسباب ، وأمن سوء العاقبة ، وضمن النجاة والفوز . والله سبحانه وتعالى سميع دعاء من دعاه ، عليم بما تكنه الصدور ، وهو جل شأنه معين المؤمنين ، ومتولى أمورهم : يوفقهم إلى وسائل الخير بهدايته ، وينقذهم من مهاوى الكفر إلى عزة الإيمان .

أما من كفر به وآمن بمن عداه فإنه يضل عن طريق السواء ، ويهوى إلى درك الشقاء ، ويكون مآله جهنم يلقى فيها أصناف العذاب أمدا طويلا .

من ذلك ترى أن الدين الإسلامى دين إقناع و برهان ، لا دين قسر و إكراه ، وأن الله يهدى من تمسك به ، وينصر من اتبعه وأخلص له ، وأن من كفر به فقد ضل سواء السبيل ، وكان مثواه جهنم و بئس المصير .

(٢) قال الله تعالى :

«يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾»

(من سورة الحجرات)

المفـــردات

من ذكر وأنثى : من آدم وحواء ، أو من أب وأم .

شعوبا : جمع شعب وهو الجمع العظيم .

قبائل : جمع قبيلة وهى الجماعة أقل من الشعب يجمعها أب واحد .

تعارفوا : يعرف بعضكم بعضا فتتعاونوا .

أكرمكم : أفضلكم .

أتقاكم : أكثركم طاعة لله .

الشرح

خلق الله تعالى جميع الناس من أب واحد هو آدم عليه السلام ، وأم واحدة هى حواء ، فهما أصل النوع الإنسانى كله : الغنى والفقير ، والعظيم والحقير ، والملك والسوقة ، لا يفضل أحدهم الآخر فى أصله .

ثم اقتضت حكمته أن يجعل هذا النوع جماعات مختلفة فى القلة والكثرة ويوزعها فى أنحاء المعمورة ؛ فتكوّنت الشعوب والقبائل والدول والممالك ، وأرشدها الله الى استنباط ما أودع الأرض ، فأفاد كل من الخيرات والمنافع والعلوم على حسب استعداده ومؤهلاته ، وذلك لكى يتبادلوا المطالب والحاجات ، ويتعاونوا على ما يرقيهم ويسعدهم فى حياتهم ، لا ليتفاخروا بالأنساب ، ويتعالَوا بالآباء والأجداد ، فما فى ذلك موضع فخر . وما دام الكل يجمعهم أب واحد وأم واحدة ، فليس لأحد فضل أن كان أبوه غنيا أو ملكا ، ولا على أحد مذمة أن كان فقيرا أو من السوقة ، وإنما الفضل والفخر بما يكون من صنع الإنسان وبما لكسبه مدخل فيه . وذلك هو طاعة الله تعالى والتزام أوامره وترك نواهيه ، وهى كلها تدور حول ما يرقى شأن الفرد وشأن الجماعة ، ويعلى أقدار الرجال ، ويعز الأمم . وكلما ازداد حظ الفرد منها وأكثر من أعمال الخير والطاعات وفنى فى رضا الله والعمل لخير أمته وبلاده ، وجانب ما يغضب المولى ، ويجلب الضرر له أو لبنى جنسه — كان أكثر فضلا ، وأعلى شأنا ، وأحسن أثرا . وفى هذا الميدان يكون التسابق والتفاخر . ولا يستوى من يضحى بماله أو نفسه أو وقته فى سبيل إسعاد نفسه وإسعاد أمته وما فيه رضا الناس ومن يضن على قومه بفضله ، ويبخل على أمته بماله ، ويعصى ربه ، ويغضب قومه ومعاشريه .

فالأول عظيم الأثر ، جليل الشأن والخطر ، ولو كان قليل المال وضيع النسب .

والثانى هين على الناس لا اعتبار له عندهم . وما ذا ينفع الأصل والحسب إذا كانت النفس وضيعة لا تترفع عن الدنايا ، ولا تأبى المنكرات ؟ وما يضر وضيعَ النسب

إذا كان ذا نفس أبية ، وعزيمة ماضية ، واقدام على الأحداث، ودأب فى سبيل الخيرات ، وترفع عن الدنايا والمعاصى ؟

والله سبحانه وتعالى عليم بأقدار الناس وفضلائهم ، خبير بما يصنعون ، فيكرم من يستحق الإكرام والفضل ، ويعلى من هو أهل للعلو والرفعة .

فعلى من يبغى الفخار أن يفاخر بعمله ، وبمقدار ما يقدّمه لأمته من المنافع والتضحيات ، وما يتقرّب به إلى مولاه من الطاعات والخيرات ؛ ففى ذلك متسع للجميع .

ليس الفتى من يقول كان أبى ‏ ‏ ‏ إن الفتى من يقول هأنذا

ولقد روى أن رجلا من الأشراف حضر مجلس النبى صلى الله عليه وسلم فلم يجد مكانا ، ونظر إلى رجل جالس فلم يفسح له ، فقال له : يا بن فلانه ، فوبخه النبى صلى الله عليه وسلم وقال له : إنك لا تفضل أحدا إلا فى الدين والتقوى .

وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع فكان مما قاله : يأيها الناس ألا إن ربكم واحد ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . وقال : كلكم لآدام وآدم من تراب .

وليس الغرض من الآية نفى التفاوت بين الناس فى الشرف والحسب ؛ فإن فيهم الشريف والخسيس . ولكن المقصود الحث على الإكثار من الخيرات والفضائل والتسابق فيها ، وترك التفاخر بالنسب والحسب الذى يقتضى التكبر على الناس واحتقارهم . والحزم اللائق بالنسيب أن يتق الله تعالى ويكتسب من الأعمال الحميدة ما لو صدرت من غير نسيب لرفعته ، ولا يكتفى بمجرد الانتساب إلى جدود سبقوا حتى لا يقال له : نعم الجدود ولكن بئس ما خلفوا .

(٣) قال الله تعالى :

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ
لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ،
فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ . إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾
إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى
يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ . وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ »

(من سورة آل عمران)

المفردات

فبما رحمة : بسبب شفقة وإحسان . فظا : شرس الأخلاق. غليظ القلب : قاسيا خاليا من الشفقة . انفضوا : تفرقوا . اعف عنهم : اصفح عن هفواتهم . استغفر لهم : اطلب من الله أن يغفر ذنوبهم . عزمت : صممت وعقدت قلبك . توكل على الله : اعتمد عليه وامض فى عملك . يخذلكم : يحول بينكم وبين النصر.

الشرح

أكرم الله سبحانه وتعالى محمدا صلى الله عليه وسلم بأسمى الخصال ، وجَمَّلَهُ بأفضل الصفات ، وأدبه بأحسن الآداب ، فكان فى نفسه الكامل فى سمو الأخلاق ، وبين أصحابه وعشيرته المثال الذى يُحتذى ، فكان بهم بارا رحيما ، لَيِّنَ الجانب ، حسن العشرة ، شديد التواضع ، بعيدا عن الكبر والقسوة ، يخاطبهم بأعذب الكلام ، ويناديهم بأحب الأسماء إليهم ، ويعفو عمن أساء منهم ، ويتجاوز عن زلات المذنب ، ولا ينتقم من عدوه إلا إذا كان فى معصية الله ، وما كان سبابا ، ولا بذىء اللسان ، ولا فاحش المنطق .

ولا غرو فإن الله قد اصطفاه لرسالته ؛ ليهدى الناس وينقذهم من ضلال الكفر والمعاصى إلى نور الإيمان والطاعات ، وذلك يقتضى منه حسن مخاطبتهم ، والتلطف معهم ، وإلا انفضوا من حوله وتركوه ، فما يستطيع أن يؤدى رسالة ربه .

كل ذلك من فضل الله عليه ورحمته به وبأمته ، وتأديبه إياه ، حتى قال الله تعالى فيه : (وإنك لعلى خلق عظيم) ، وقال صلى الله عليه وسلم : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) .

ولقد آذاه المشركون بألوان الأذى فاحتمل وصبر ، وطلب منه بعض أصحابه أن يدعو الله ليهلكهم كما فعل بالأمم السابقة ، فقال عليه السلام : (إنى لم أبعث لعانا ، ولكنى بعثت داعيا ورحمة). وكان يقول : (رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون) وإذا بلغه عن أحد من أصحابه شىء يكرهه فأراد نصحه لا يصرح باسمه بل يقول : (ما بال أقوام فعلوا كذا وكذا) .

كما أنه لما عصى بعض المسلمين أمره فى غزوة أحد ، وتركوا مكانهم الذى أمرهم بعدم مغادرته حتى أصاب المسلمين بسبب ذلك الهزيمةُ ، ونالهم أذى كثير — لم يُغْلِظ لهم الرسول القول ، ولم يشتد فى لومهم ، بل صفح عنهم وطلب من الله أن يغفر لهم .

ولا شك أن هذه الأخلاق الفاضلة كانت من أقوى الأسباب لدخول الناس فى الاسلام أفواجا ، وحبهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، وتَفْدِيَتِهِمْ إياه ، ووقوفهم دون ما يراد به من سوء .

وقد علمه الله ألا يستبد بالأمر دون أصحابه ، ولا ينفرد بتنفيذه ؛ فأمره أن يشاورهم فى مهام الأمور ، ويتداول معهم الرأى فى أنجح الوسائل لبلوغ المقصود ، حتى إذا ما انتهوا إلى أمر نفذوه وأمضوه ؛ لأن فى ذلك تطييبا لقلوبهم ، وإعلاء لشأنهم ، واستجلاء لوجوه الصواب ، وإظهارا لما عساه أن يكون خافيا من

الآراء الصائبة . وهـذه قاعدة مجالس الشورى والجماعات النيابيـة دعمها الشرع الإسلامى ، وأمر بها نبيه محمدا عليه السـلام منذ ثلاثة عشر قرنا ؛ لتكون سنة من بعده لمن يلى أمر المسلمين .

وإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم — وهو المعصوم من الخطأ والذى ينزل عليه الوحى من السماء — قد أُمر بمشاورة أصحابه وألا يقطع أمرا دونهم فغـيره أولى بالاستعانة على معرفة الحق ، واستجلاء وجه الصواب بالاستشارة .

فواجب على المرء أن يستشير أولى الرأى الراجح والعقل الصائب من قومه فيما يهمه من الشئون . ولهذا ترى ولاة الأمر من الملوك وغيرهم فى أرقى الأمم يستعينون بمجالس الشورى والجماعات النيابية فى تصريف شئون دولهم ، والحكم فى أمورها .

ثم أمر الله رسوله الكريم — إذا ما استبان له الأمر السديد بعد المشاورة ، ووضح له وجه الحق ، وصمم على ما انتهى إليه الرأى — أن يتخذ الوسائل لإمضائه معتمدا على الله فى تذليل الصعاب وتهيئة الأسباب ؛ لأنه جل شأنه السند الأقوم ، والملجأ الأعظم الذى لا تنفع الوسائل إلا به ، وهو الذى ينصر من يعتمد عليه ، ومن نصره لا تجد الهزيمة إليه سبيلا ، ولا يلق العدو منه منالا ، ومن خذله اختلط عليه أمره ، وأدبرت عنه أسباب النصرة ، ولم يجد له وليـا ولا معينا ، ولو كان ذا عدد وخيل وسلاح .

ولقد كان المسلمون فى أول أمرهم قليلى العَدد والعُدد ، وعدوهم يفوقهم أضعافا مضاعفة ، فنصرهم الله على أعدائهم فى مواطن كثيرة ، وجعل لهم الغلبة والفوز بسبب اعتمادهم — مخلصين — عليه ، وتفويض أمورهم كلها إليه . وهكذا ينبغى أن يكون شأن المؤمنين ، فلا يَحْزُنْهُمْ قلة عددهم وكثرة عدد خصومهم ، كما لا يغرهم كثرة جيوشهم ، بل يجب أن يعتمدوا على ربهم بعد أن يُعِدُّوا لعدوهم عدتهم .

*
* *

(٤) قال الله تعالى :

« وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً . فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ » (من سورة التوبة)

المفــــردات

ما كان : لا ينبغى . ينفروا : يخرجوا للجهاد . كافة : جميعـا . فرقة : جماعة عظيمة كأهل بلد أو قبيـلة . طائفة : جماعة قليلة . ليتفقهوا : ليتعلموا ويَحْذقوا . ولينذروا : وليرشدوا ويخوفوا . لعلهم يحذرون : كى يخافوا ويتقوا عاقبة الجهل والمعاصى .

الشرح

كان بعض المسلمين يتخلفون عن الخروج مع رسول الله للجهاد ومحاربة المشركين لأعذار قاهرة ، أو اعتمادا على كفاية من يخرج معـه . فلما نزلت الآية التى توبخ المتخلفين ، وتَعْتِب عليهم أشد العتاب ، وتصفهم بالضعف وعصيان الرسول — ما كان أحد ممن يرى فى نفسه القدرة يتخلف عن غزوة أو سَرِيَّة ، بل كانوا يبادرون إلى الخروج جميعـا ، ويتركون النبي وحده فى المدينة ، فنزلت هذه الآية ترشد المسلمين إلى أنه ليس من الحكمة والسداد أن يخرجوا جميعا إلى الغزو والجهاد ، ويتركوا النبي والأحكامُ الشرعية لا تزال تنزل عليه ، بل الواجب أن يخرج فريق لمحاربة الأعداء والدفاع عن الدين ، ورد كيد المشركين ، ويبقى فريق يتلقون عن النبي ما عساه ينزل من الأوامر والنواهى فى تلك الفترة ، ليَحْذقوا فهمها ، ويبلغوها إخوانهم إذا رجعوا من الجهـاد ؛ فحفظ الدين ليس مقصورا على محاربة الأعداء ، بل يتطلب أيضا أن تخصص طائفة لفهم ما ينزل من الشرائع وحفظه وضبطه وتبليغه لمن لم يكن حاضرا نزوله .

ففى الآية جملة محذوفة دل عليها ما هو مذكور ، والتقدير : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة وبقيت طائفة ليتفقهوا فى الدين) ، فحذفت (وبقيت طائفة) لدلالة الكلام عليها . فالطائفة التى تبقى هى التى تتفقه وتتفهم وتحذق ما ينزل فى غيبة الطائفة النافرة ؛ ليعلموها ويرشدوها متى رجعت .

أو تكون الطائفة النافرة للغزو والجهاد هى التى تتفقه فى الدين بما ترى من نصر الله المسلمين على قلة عددهم ، وضعف استعدادهم — على الكافرين مع وفرة العدد والعُدد ، فيزدادون يقينا على إيمانهم ، ويخبرون قومهم إذا رجعوا إليهم بما رأوا من إكرام الله لهم ، وإعلائه شأن دينهم ، فيعلمون أنهم على حق ، وأن الله قد أنجز وعده ؛ بأن جعل كلمتهم هى العليا ، وكلمة الكافرين هى السفلى .

وفى الآية على التفسير الثانى حث المؤمنين على أن يبعثوا طائفة من الأمة إلى البلاد النائية ؛ ليتزودوا من العلوم النافعة ، ويحذقوا أصناف الفنون التى ترقى شأنهم ، حتى إذا ما عادوا ، نفعوا أوطانهم ، وبثوا تلك العلوم فى أبناء أمتهم ؛ كيلا يسبقهم غيرهم من الأمم ، وليمكنوا لأمتهم فى الأرض ، ويعملوا ما يقيهم إغارة المغيرين عليهم ، واستيلاءهم على بلادهم ومرافقهم . ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

وفى الآية أيضا إشارة إلى أن الغاية من طلب العلم ، وحذق الفن أن يخدم الشخص أمته بعلمه ويعلم أبناءها ، لا أن يتباهى بما علم ، أو يستأثر به دون بنى قومه ، فلا يفيدَهم ولا ينفَعَهم .

*
* *

(٥) قال الله تعـالى :

«إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُـدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أُولَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُـوا فَأُولَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ . وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ » .

(من سورة البقرة)

المفردات

البينات : الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته . الهدى : الإرشاد .

الكتاب : القرآن الكريم .

يلعنهم الله : يطردهم من رحمته ، ويحرم عليهم جنته .

يلعنهم اللاعنون : يدعون عليهم بالحرمان من رحمة الله .

تابوا : ندموا ورجعوا عن الكتمان . أصلحوا : أتوا بالأعمال الصالحة .

بينوا : أظهروا ما يكتمونه . أتوب عليهم : أغفر لهم ما أسلفوا .

التواب : كثير العفو والصفح عن المعاصى . الرحيم : كثير الرحمة والشفقة .

الشرح

أنزل الله القرآن الكريم بأحكام وتعاليم لهداية الناس ولإنقاذهم من حيرة الضلالة والأخذ بهم إلى ما يسعدهم ، وينير لهم سبل الحياة وغياهب الجهل . فمن علم شيئا منه وكتمه عن الناس ، وأبى أن يرشدهم أو ينصح لهم — فقد عمل على نشر الجهل والكفر ، وبقاء الناس فى الشرك ، والبعد عن الصراط السوى ، ورضى باقتراف الآثام وأنواع المعاصى والفجور ، وأحب أن يبقوا بعيدين عن معرفة الحق والصواب وما يرضى الله ، وحال بينهم وبين ما يرفه عيشهم ويرشدهم ، وأراد إخفاء

دين الله وقرآنه. وهذه من غير شك جرائم شنيعة ،وسيئات عظيمة ، ضررها كبير ، وأثرها فى الشر والفساد لا يقدر ، ولذا حَرَّمَ الله مقترفها أن ينـال شيئا من رحمته وإحسانه لحق عليه الطرد من بره وفضـله ، كما استحق سخط جميع الناس عليه ، ومقتهم له ودعاءهم عليه ؛ لأنه حرمهم معرفة آيات الله البينات ، ومنعهم الإهتداء بهدى الله ونوره ، وأحب لهم التخبط فى متاهات الجهل والضلالة .

وعلى مثال ذلك من آتاه الله علما بالدين ، وحذقا بمعرفة الأحكام والحلال والحرام ، فكتمه عن العباد ، واستأثر لنفسه بما علم ، وضن على الناس بالإرشاد والنصح بعد أن توافرت الدواعى لذلك ، وصار من الواجب إذاعة ما يعلمه ، فإن جزاءه كجزاء من كتم آيات القرآن : بُعْدٌ عن لطف الله وكرمه ونعيمه، ومقت من الناس . قال صلى الله دليه وسلم :

” من سئل عن علم فكتمه جاء يوم القيامة مُلْجَمًا بلجام من نار“ .

غير أنه إذا لم يأمن على نفسه أَو ماله إن أذاع ما يعلم أنه الحق وأنه حكم الله — فلا عقاب عليـــه ولا إثم . كما إذا حدثت اضطرابات وفتن ملكت على الناس عقولهم ورشدهم بحيث لا يسلم من شرهم من دعا بنصحه و إرشاده إلى الجادة المثلى والسبيل الحقة .

وكذا إذا وجد فى الأمة أفراد قـد خصوا بهذا النوع من التعليم والإرشاد فلا يلام الشخص إذا كتم ما يعلم إلا إذا سئل فيتعين عليه حينئذ الجواب .

ومن عظيم رحمـة الله بعباده أن وعد بالعفو والصفح عمن يتوب عن المعصية الجسيمة متى ندم على ما كان منه ، واستشعر قلبه الألم والحزن على ما اقترف ، ثم أصلح ما أفسده بكتمانه ، وأكثر من صالح الأعمال والطاعات ، ثم ترك الكتمان إلى الإذاعة والبيان . فهنا يكون مستحقا أن يعود الله عليـه برحمته التى كان قد

منعها عنه ، ويشمله برعايته وغفران سيئاته ؛ لأن الله يحب من عباده التوبة عن المعاصى والإقلاع عن الشرور والآثام . وهو سبحانه يبدّل سيئاتهم حسنات ، ويعطيهم ما كان قد حرمهم متى أخلصوا فى توبتهم ، وأصلحوا ما سلف من معاصيهم ، وأخذوا فى العمل بما كانوا قد تركوا ؛ رحمة منه وشفقة بعباده .

تدلك هاتان الآيتان على مقدار غضب الله وسخط الناس على العالم الذى لا يفيد الناس بعلمه ، وحافظ القرآن الذى يبخل بتعليمه غيره، والحاذق لأنواع من العلوم الضرورية الذى يأبى أن يرشد الناس ويفيدهم ، وأن من شعر بسوء صنعه ، وأناب الى الله، وأذاع ما يعلمه بعد كتمانه — قبل الله إنابته ، وعفا عن زلاته ، وأكرمه برحمته وإحسانه .

(٦) قال الله تعالى :

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ . ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَءَاتُوا ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً . فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ »

(من سورة النساء)

المفردات

تُقسِطو : تعدلوا . اليتامى : جمع يتيمة وهى الصغيرة التى مات أبوها .

طاب لكم : حل لكم . مثنى وثلاث ورباع : اثنتين وثلاثا وأربعا .

ما ملكت أيمانكم : جواريكم . أدنى: أقرب . تعولوا : تجوروا وتظلموا .
صَدُقاتهن : مهورهن . نحلة : فريضة واجبة ، أو طيبة بها نفوسكم .
طبن : رضين . كلوه : تصرفوا فيه . هنيئا مريئا : حلالا طيبا .

الشرح

من فقد أباه وهو صغير استحق رحمة الراحمين ، وشفقة ذوى البر والمروءة ، وكان خليقا أن يشمله الناس بعطفهم وحنوهم . ولكن بعض النـاس لا يرعى له حقـا ، ولا يراقب الله فى معاملته ، فان كان غلاما ذا مال اغتـال ماله وبدده فى مصالح نفسه ، ولم يبق لهذا المسكين منه شيئا . وإن كان بنتا تحل له تزوجها دون أن يدفع لها مهر أمثالها ، فيظل يؤذيها ويصب عليهـا أصناف الشقاء حتى تموت فيرثها ، فهو لم يرغب فيها حين تزوجها ، وإنمـا رغب فى مالها ، وجعله الهدف الذى يرمى إليه من زواجها .

فوعظ الله المسلمين فى هـذه الآية بالعدول عن ذلك ، وأمرهم أن يعـدلوا فى معاملة اليتامى إذا ما تزوج أحدهم بواحدة منهن ، وأن يُعْطِيَهَا المهر الذى كان يقدمه لمن تكون مثلها ، وإذا تيقن أنه لا يعطيها حقها فى حسن المعاشرة ومقدار المهر فليتركها ، ولديه غيرها من النساء فليتزوج اثنتين أو ثلاثا أو أربعا على حسب قدرته واستعداده وكفايته . كل ذلك متى وثق من نفسه أن يعـدل بين زوجاته فى الإنفاق والبشر والسرور والإقامة ونحو ذلك .

أما إذا لم يستيقن من نفسه العدل، وخاف أن يجور على إحداهن، أو ينتقص ما يجب لها عليه — فلا يجوز له أن يزيد على واحدة ؛ لئلا تُنَغَّصَ معيشته، وتذهب هناءته، ويظل مع نسائه فى خصام وشقاق وأحقاد وبغضاء كثيرا ما تنتهى بمشا كل ومخاصمات تُنْفَقُ فيها الأموال سدى، وتهدر بسببها الأرواح؛ فبدلا من أن يكون الزواج وسيلة راحة وهدوء ، وسبب مودّة ومحبة — يصبح مجلبـة غم ونصب . وما ذلك إلا من تعدد الزوجات بدون قدرة على كفايتهن وإجراء العدل بينهن .

وإن كان له جوار مملوكات كان له أن يستمتع بهن أو بمن يشاء منهن قل عددهن أو كثر ؛ لأن ملكه لهن يجعل له حق الانتفاع بهن بوجوه الانتفاع الجائزة لمثلهن . وقد زال الرق الآن وزالت أسبابه .

وإنما أباح الدين الإسلامى تعدّد الزوجات إلى أربع لحكم ومنافع كثيرة . ولولا ذلك لوقع الناس فى حرج ومشقة .

منها أن الزوجة قد تكون عقيما لا تلد ، والرجل يتوق إلى ذرية تقرّ بها عينه ، وتساعده على تكاليف الحياة ، فأبيح له أن يتزوج أخرى عسى أن يرزقه الله منها من الأولاد والبنات من يسر بهم ، ويخففون عنه متاعب المعيشة .

وقد تكون الزوجة مريضة مرضا شديدا ويؤلمها أن يطلقها زوجها ، أوتدعو ظروف خاصة إلى عدم طلاقها ، فأبيح له التزوج بغيرها .

ومنها أن تحدث حروب أو اضطرابات تذهب بكثير من الرجال ، أو تدعو إلى هجرتهم ، فيبقى كثير من النساء لا عائل لهن ، ولا زواج يعصمهن ، وفى ذلك ما فيه من الشر المستطير والبلاء الكبير . وها نحن أولاء نشاهد ما جلبته الحروب والفتن فى البلاد الغربية حتى عمت المنكرات والموبقات وفقد الحياء والأدب .

فلولا إباحة الإسلام التزوج بأكثر من واحدة لوقع المسلمون فيما أصيب به غيرهم . وهذه الإباحة — كما علمت — فى حدود ضيقة ، ومقيدة بقيود شديدة أهمها القدرة على الإنفاق ، والوثوق من العدل بين الزوجات ، ووجود الضرورة لذلك . فإن فقد شرط من هذه الشروط وجب الاقتصار على الواحدة وحرمت الزيادة عليها .

وكما أباح الشرع للرجل الزواج أوجب عليه أن يؤدى لزوجته المهر ، وهو ما اتفقا عليه حين العقد أو بعده قل أو كثر ، وإن لم يتفقا فعليه مهر مثلها : أى أنه لا يتزوجها بالمجان ، وفى ذلك تكريم للمرأة ، وتعزيز لحق من حقوقها ، واعتبارها

طرفا فى العقد له حقه وكرامته ، ويصير ذلك المهر ملكا خالصا لها تتصرف فيه كما تشاء متى كانت أهلا للتصرف ، وليس لأحد من الناس حق فيه سواء فى ذلك زوجها وغيره إلا برضاها ؛ فإن شاءت انتفعت به كلا أو بعضا ، وإن شاءت وهبته لزوجها أو برأته منه . وفى هذه الحال يحل له أن يتصرف فيه بما يرى من أنواع التصرفات .

* * *

(٧) قال الله تعالى :

« إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ . إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦ . إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ، فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ . ذَ ٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ »

(من سورة النساء)

المفــردات

الأمانات : كل ما يعهد إليك حفظه من مال أو سر أو عمل .

نعما يعظكم : حسن ما ينصحكم به ويرشدكم إليه . أولى الأمر : الولاة والملوك .

تنازعتم فى شئ : اختلفتم فى فهم أمر من أمور الدين .

ردوه إلى الله والرسول : اعرضوه على ما فى القرآن وسنة النبى الصحيحة .

أحسن تأويلا : أسلم عاقبة وأبعد عن الشقاق .

الشرح

يأمرنا الله تعالى فى هاتين الآيتين بما يأتى :

(١) أن نؤدى الحقوق إلى أصحابها ، ولا نقصر فى ذلك ما استطعنا ؛ فإذا حُمِّلْنَا رسالة إلى شخص فلنؤدها إليه كما هى ، وإذا أطلعنا أحد على سره، ورغب إلينا فى كتمانه — وجب علينا عدم إفشائه وإذاعته ، وإذا عُهِدَ إلينا فى عمل من الأعمال لَزِمَنَا الوفاء به كاملا ، وإذا وكل إلينا حفظ شئ وصيانته لا يسوغ لنا استعماله أو التهاون فى المحافظة عليه حتى نرده إلى صاحبه .

فأمانة العالم أن يذيع على الناس ماهداه الله إليه ، ولا يكتم عنهم شيئا مما فيه صلاحهم ورشادهم . وأمانة الموظف تكون برعايته شئون وظيفته ، وتنجيز أعماله فى أوقاتها ، وعدم إفشاء مايعهد إليه من أسرارها ، وعدم اختلاس ما فى عهدته من الأموال. وأمانة الصانع تكون بالوفاء بما تكفل بعمله على مااشترط عليه دون غش ولا تغيير. وامانة الحارس تكون بالمحافظة على ما أقيم حارسا عليه ، وعدم التهاون فى حياطته وعدم الغفلة عنه . وأمانة الصديق تكون بكتمان أسراره، والوفاء بحقوق الصداقة فى السراء والضراء ، والثبات عليها ، وعدم التنكر له وقت المحنة . وهكذا.

إن ذلك كله يزيد ثقة الناس بعضهم ببعض، وطُمَأْنِينَتَهُمْ على أسرارهم وأموالهم وحقوقهم ، فيزداد تآلفهم ومحبتهم ، وينتشر الأمن بينهم . وقد قال صلى الله عليه وسلم : (لا إيمان لمن لا أمانة له) .

(٢) أن نحكم بين الناس بالعدل؛ فالقاضى ينصف المظلوم من الظلمة ، ويرد الحقوق إلى ذويها؛ فلا يبرئ آثما، ولا يدين بريئا، ولا يقرب خصما على خصم. والرئيس يسوى بين مرءوسيه فيما يعهد إليهم من عمل ، ويوزع بينهم بشاشته وعطفه ، ويعطى كل واحد ما يستحق من مكافأة وترقية ، ولا يرقى صنيعة له

من غير حق ، ولا يغضى عن معايب ذوى الحظوة عنده ثم يحصى على غيرهم أنفاسهم وهفواتهم ، بل يكون الكل لديه سواء فيما هو من مقتضيات الوظيفة ومستلزمات إنجاز الأعمال ؛ فإن ذلك يبعث فى المرءوسين النشاط والدأب والجد والخوف من التقصير والتهاون ، فيكثر إنتاجهم ، وينتظم سير الأعمال ، ويتوافر الكل على ما يرقى شأن البلاد ، ويسيرها فى مدارج الكمال .

ولا شك أن هاتين الصفتين من دعائم العمران القوية ، وأسس الحياة الصحيحة ، ولذا يأمرنا الله بهما وينصحنا بالتزامهما ، وهو بعد ذلك سميع ما نقول ، عليم بما نعمل ، فمجازينا على ما نقدم .

(٣) أن نطيع الله والرسول ومن يلى أمرنا من الملوك والحكام . وإطاعة الله تكون بفعل ما أمرنا به وترك ما نهانا عنه ، فلا نترك ما وجب علينا أداؤه من الطاعات والتكاليف ، ولا نجترح ما نهينا عنه من المعاصى والآثام . وأن نراقبه فى السر والعلن : لا نخشى سواه ، ولا نرجو الخير إلا منه ؛ فإن بيده مقاليد أمورنا يصرفها كيف يشاء ، وهو المعز المذل مالك الملك ذو الجلال والإكرام .

وإطاعة الرسول تكون باتباع ما ثبت لنا عنه من الأقوال والأفعال التى لم تكن من خصوصياته ؛ فإن طاعته طاعة لله "من يطع الرسول فقد أطاع الله" ، ولأن ما يصدر منه إنما يتلقاه عن الله بالوحى ، وتكون بالمحافظة على شريعته ، والحرص على أن يكون هو قدوتنا ومُحتذانا ، ولا نخشى فى ذلك لومة لائم .

وإطاعة الحكام والملوك تكون بالعمل بما يصدرون من أوامر ، وما يسنون من قوانين ، وتنفيذ ما يطلبون ما داموا متبعين الشرع ، غير آمرين بمعصية ولا منكر ، فإذا ما حادوا عن الشرع الحكيم ، أو أمروا بما يخالف الدين القويم لا يجب علينا طاعتهم ؛ لأنهم بذلك يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحله ، وطاعة الله حينئذ أولى من طاعتهم . وقد قال صلى الله عليه وسلم : "لا طاعة لمخلوق فى معصية الله تعالى" . فكل من سار من الملوك والولاة على الدين الإسلامى ، فأمر بما أمر

الله به ، ونهى عمـا نهى عنه — كانت طاعتهم عهدا فى عنق من تحت ولايتهم من المسلمين ، أما إذا حادوا عن ذلك فلاوفاء ولا طاعة .

هذا وقد يُصْدِرُ بعض الولاة من القوانين ما لا يراه المفكرون متفقا مع المصلحة أو خير البلاد دون أن يكون محرِّما حلالا أو محللا حراما . فالطريقة المثلى لتدارك ضرره هى السعى لإلغائه بكافة أنواع الطرق السلمية من غير التجاء إلى وسائل العنف والقـوة .

(٤) إذا اختلفنا فى أمر وأشكل علينا وجه الصواب فيه فلنعرضه على كتاب الله وسنة رسوله ، فإن وافق قواعدهما عملنـا به ، وإلا اجتنبناه ولا نلجأ إلى اللجاج والمكابرة ، ولا إلى الفتوى بغير علم ، ولا التعصب للرأى المؤدى إلى الشقاق وتفريق الكلمة ؛ فإن القرآن دستورنا ومرجعنا ، والسنة مفسرة له شارحة ما غمض منه ، فالرجوع إليها توحيد للكلمة ، وخضوع للحق والعدل ، وأمان من الضلال ، وضمان لحسن العاقبة ، أما إذا سلك كل ذى رأى طريقا ، واختط لنفسه خطة فإنه يبعد عن الصواب ، ولا يأمن الزلل والعثار ، وقد يعميه الاستبداد برأيه عن الإنصاف فيتوارى خلف الشبهات ، بل قد يجره ذلك إلى تعمد الكذب والافتراء كى يقوى باطله ، وربمـا يستمرئ ذلك المرعى الوبيل فيتردى فى الضلالة والشقاء .

*
* *

(٨) قال الله تعـالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا . ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ، وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ . إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَآ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾) »

(من سورة المـائدة)

المفــردات

قوامين لله : دائمين على القيام بحقوقه . القسط : العدل .

لا يجرمنكم : لا يحملنكم . الشنآن : شدة البغض .

تعدلوا : تعطوا كل ذى حق حقه . التقوى : مخافة الله .

مغفرة : صفح وتجاوز عن العقوبة . الجحيم : النار المتأججة .

الشــرح

يأمرنا الله جل شانه أن نكون مواظبين على عبادته ، مجتهـدين فى طاعته ، لا نَغْفُل عن مراقبته والخوف منه ، وأن نلتزم قول الصدق والشهادة بالحق فى كل موطن وعلى أى شخص . فإذا تكلمنا لا نقول إلا ما نعتقـده حقا ، و إذا دُعِينَا للشهادة أمام قاض أو رئيس أو حاكم لا نشهد إلا بما يطابق الواقع ولو على أنفسنا أو أقرب الناس إلينا ، ولا تحملنا القرابة على تغيير الحقيقة لمصلحة أحد أقاربنا ، أو لضرر أحد خصومنا . ومهما كان بيننا و بين المشهود عليه من محبة أو عداوة لا نغير أقوالنا ، ولا ندنس كرامتنا وشرفنا بالكذب أو الظلم والجور . و إذا كان الواحد منا قاضيا أو حاكما أو رئيسا — لا يحابى قريبا أو صديقا ، ولا يظلم بعيدا أو عدوا ، بل يعدل بين الجميع ، وينصف المظلوم من الظالم غير مراقب إلا ربه وضميره ، ولا خائف إلا ممن بيده كل شىء وهو الله عز وجل ، ويجعل من نفسه ملاذا لكل خائف ، وملجأ لكل مظلوم . فبذلك يطمئن الجميع إلى عدله ، ويخشى الظالم بطشه وسلطانه ، ولا يجد المدلسون والمبطلون سبيلا إلى اغتيال أموال الناس وأخذ ما ليس لهم مهما حاولوا من التدليس وأخفوا من حقيقة أمرهم ، وبذلك يكون الشخص قريبا من الله ، قد اتخذ لنفسه وقاية من عذابه وغضبه ، وجعل بينه و بين جهنم حجابا .

والله سبحانه وتعالى مطلع على ما نعمل: لا يخفى عليه منه شيء، فمجازينا بما نستحق ، ولا تنفعنا قرابة الأقربين ، ولا صداقة الأصدقاء .

وقد وعد الله عباده الذين يخلصون فى إيمانهم، ويأتون من كل عمل أحسنه وأصلحه — أن يتجاوز عما يكون من هفواتهم وزلاتهم، ويؤتيهم ثوابا عظيما وأجرا جزيلا لا يشوبه مَنٌّ ولا كدر . كما أن الكفار الذين يجحدون ربوبيته بعد قيام الدلائل الواضحة على أنه الإله الواحد، ويكذبون بالقرآن الذى أنزله على خاتم رسله وأيده بالمعجزات الدالة على صدقه — قد أوعدهم بالعذاب الشديد فى نار متأججة وقودها الناس والحجارة يُخَلدون فيها : لا يموتون ولا يخرجون .

وهو جل وعلا منجز وعده وإيعاده ؛ فأى عاقل يعرض عن مرضاة مولاه ، ويتعرض لسخطه وشدة عقابه ؟ انه لا يفعل ذلك إلا من ضل ضلالا مبينا .

(٩) قال الله تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ . قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَـٰٓأَنْتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ . قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ . إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا . إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) »

(من سورة آل عمران)

المفـــردات

بطانة : أصدقاء خُلَصاء . من دونكم : من غير دينكم .

لايألونكم خبالا : لايقصرون فى الشروالأذى لكم .

ودواما عنتم : أحبوا وقوعكم فى الضرر والمشقة . بدت : ظهرت .

البغضاء : البغض والعداوة . بينا الآيات :أظهرنا الدلالات الواضحة التى يتميز بها العدو من الصديق . الكتاب كله: جميع الكتب السماوية .

خلوا : مضوا أو انفرد بعضهم ببعض . الأنامل : أطراف الأصابع.

الغيظ : الغضب . بذات الصدور : بما خفى فى القلوب .

تسؤهم : تحزنهم . كيدهم : مكرهم . محيط : مطلع على كل أعمالهم .

الشرح

ينهى الله المؤمنين ويحذرهم أن يتخذوا لهم أصدقاء أو نصراء من غير دينهم : يفضون إليهم بأسرارهم ، ويأتمنونهم على مرافقهم ، ويكلون اليهم أمورهم ،

وقد بين جل شأنه الأسباب التى من أجلها نهاهم فيما يأتى :

(١) أنهم لا يقصرون فى أذى المؤمنين،ولا يدخرون وسعا فى كل مايضرهم ويضعف شأنهم ويضيع مصالحهم . ومهما يعملوا لا يخلصوا لهم فى نصح ، ولا يحرصوا على خير ، ولا يحفظوا سرا .

(٢) أنهم يُسَرُّونَ من كل ما يصيب المؤمنين من ضر ومكروه ، ويعملون لذلك ما استطاعوا .

(٣) أنهم لا يكفون ألسنتهم عن النيل من المؤمنين ، والحط من شأنهم ، والازدراء بكرامتهم .

(٤) أنهم يضمرون لهم كل سوء ، ويطوون صدورهم على الغيظ والحَنَق ، وينتهزون الفرصة للايقاع بهم والكيد لهم .

(٥) أنكم مهما تبذلوا لهم من حب ومودة فلن يقابلوكم إلا بالبغض والحقد ، ومع أنكم تُصَدِّقُونَ بكتبهم التى أنزلها الله على رسلهم فهم لا يصدقون بقرآنكم ولا بنبيكم .

(٦) أنهم منافقون يبدون لكم المسالمة واللين وربما أظهروا أنهم على دينكم ليخدعوكم ، ويعرفوا أسراركم ، ويأمنوا جانبكم ، حتى إذا ما خلا بعضهم إلى بعض عضوا أناملهم من الغيظ والكراهة لكم ، ودبروا لكم كل مكيدة .

(٧) إن نالكم خير من خِصب ونصر وغنى حزِنوا ، وحز ذلك فى صدورهم ، وإن أصابكم شر من قحط أو فقر أو هزيمة فرحو واغتبطوا .

فكيف بعد ذلك ترجون منهم النفع ، وتعتمدون عليهم فى المُهِم من شئونكم ؟ إن ابتغاء الخير منهم حينئذ كابتغاء الماء من الحجر الأصم ، والاستعانة بهم لا تثمر إلا الفناء والضعف .

ولقد حدّثنا التاريخ — وهو أَبو العبر — أنه ما من أمة مسلمة اعتمدت على غير أبناء ملتها ، ووكلت أمورها إلى من يخالفها فى الدين إلا أصابها الذل والهوان ، ولازمها التأخر والانحطاط ، وحالفتها الخيبة والتدهور المادى والأدبى ، وذهبت قوتها ، واسْتُنْزِفَتْ ثروتها ، وتسربت أموالها ومرافقها الطبيعية والصناعية والتجارية إلى غير أهلها ، ولا تلبث أن تضمحل وتفنى فى غيرها ، وتصبح بمثابة مادة تقوى سواها .

فيجب علينا أن نعتمد فى تدبير أمورنا على أنفسنا ، وألا نستعين إلا بأهل ديننا ، يَسُرُّهُم يُسْرُنَا ورخاؤنا ويُفْرِحهم عـزنا ونصرنا وقوتنا ، ويخلصون لنا فى النصيحة والإرشاد ، ويُجَنِّبُونا مواقع الزلل والضعف . كما يجب علينا أن نصـبر على مجالدة

أعدائنا ، ونتق الله فى جميع أحوالنا وأوقاتنا . إننا إذا فعلنا ذلك جنينا الظفر والعزة ، وحفظنا الله من كل مكروه ، ورد كيد أعدائنا فى نحورهم ، فماتوا غيظا وحسرة وكمدا .

(١٠) قال الله تعالى :

« يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ »

(من سورة الأحزاب)

المفردات

اتقيتن : خفتن الله تعالى . لا تخضعن بالقول : لا يكن كلامكن لينا فيه ريبة . مرض : طمع وفجور . قولا معروفا : كلاما حسنا بعيدا عن الشبهة .

قَرْنَ : الزمن . لا تَبَرَّجْنَ : لا تُظْهِرْن محاسنكن وزينتكن للرجال .

الجاهلية الأولى : ما كان عليه الناس قبل الإسلام :

الرجس : المعصية وما يلوث الشرف .

الشرح

إذا عظم شأن إنسان وارتقت منزلته وجب أن يكون سامى الخلق ، حميد الخصال لا تقع العين منه إلا على كمال ورقى ، وأزواج النبى صلى الله عليه وسلم لسن كسائر النساء ، بل قد حُزْن شرف الاتصال به ، ونزل الوحى عليه فى بيوتهن ، وفهِمْن

الكثير من أحكام الدين ؛ فهن أفضل النساء ، ولذا كن أمهاتِ المؤمنين ، فيجب أن يكن فى قولهن وفعلهن القدوة الحسنة ، والمثل الأعلى لمكارم الصفات ، ومحاسن الآداب . وقد أنزل الله فى شأنهن هذه الآيات ، إرشادا لما ينبغى أن يتحلين به ، وتعليما لغيرهن . فمن ذلك :

(١) أن يكون كلامهن بعيدا عما يوجب الشبهة والريبة ، لئلا يطمع فيهن ذوو النفوس الخبيثة ، والأخلاق السيئة ، وأن يكون حديثهن حسنا ، لا جفوة فيه ولا غلظة .

(٢) أن يلزمن بيوتهن ، فلا يخرجن إلا لحاجة ماسة كالحج ، أو زيارة الوالدين ، او عيادة المرضى من أقاربهن فى حشمة ووقار ، ويمتنعن عن غشيان الأسواق ، وبيوت النـاس .

(٣) أن يحتشمن فلا يبدين زينتهن ومحاسنهن للرجال ، كما كان يفعل النساء فى الجاهلية قبل الإسلام ؛ منعا لما يترتب على ذلك من المضار والمفاسد ، وحفظا لوقارهن واحترامهن فى القلوب .

(٤) أن يداومن على الطاعات ، فيؤدين الصلاة فى أوقاتها ، ويؤتين الزكاة لمستحقيها ، ويلتزمن أوامر الله جل شأنه ، ويجتنبن نواهيه ، ويحافظن على ما تَلَقَّيْنه عن الرسول ؛ لأن سائر النساء يقلدنهن فى أفعالهن ، ويتَرَسَّمْن خُطاهن ، ولأن الله يريد أن يحول بينهن وبين ما ينقص قدرهن ، أو يحقر أمرهن ، وأن يطهرهن مما يدنس شرفهن .

(٥) أن يكثرن من تلاوة القرآن الكريم ، والتدبر فى معانيه ، وما اشتمل عليه من حكم وآداب وأخلاق ، وما تلقينه عن رسول الله ، فيعملن به ، ليزدن كمالا على كمال ، ويقينا على يقين ، والله سبحانه لطيف بعباده فى قضائه ، خبير بما يصنعون

الأحاديث النبوية الشريفة

(١) قال صلى الله عليه وسلم :

" إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ أَنهم كانوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشرِيفُ تركوه ، وإِذا سَرَقَ فِيهِمُ الضعِيفُ أَقاموا عليهِ الْحَدَّ " .

المفردات

أقاموا عليه الحد : عاقبوه .

الشرح

من القضايا المسلمة أن انتشار الجرائم فى الأمة ، وكثرة الموبقات والمنكرات مما يعوق تقدمها ؛ لأنه يُودى بكثير من الأرواح ، ويجرئ الأشرار على التعدى على الآمنين وسلب أموالهم.ومن وسائل العلاج لهذه الحال معاقبة الجانى والضرب على يده ؛ كى يمتنع عن معاودة ما كان منه ، وينزجر غيره ممن تحدثه نفسه بالإخلال بأمن الناس وطمأنينتهم . ومن شر الجرائم السرقة ، وقد جعل الله لها عقوبة قاسية تناسب فداحة ضررها ، وتقضى على جرثومتها ، وهى قطع يد السارق ، ذلك لأنه إذا لم يعاقب بما يزجره ويكف غيره امتدت أيدى العاطلين وذوى البطالة إلى أموال أولى الجد والعمل التى اكتسبوها بجدهم وكدهم وادخروها لحاجاتهم ، فلا يطمئن أحد على ماله ولا يسعى ويجد لإنماء ثروته وترويج تجارته . وكذلك يختل الأمن وتزدق الأرواح ، لأن الإنسان إذا وجد من يمد يده إلى أمواله ويأخذها بغير حق هب للدفاع عنها ، واستعمل كل وسيلة لحفظها ، وود من يريد أخذها ولو بالقوة فيُفْضى ذلك إلى إراقة الدماء ، هذا إلى أن التهاون فى عقوبة السارق يؤدى إلى كثرة اللصوص واستهتارهم بمراعاة حقوق غيرهم ، فيكف

العاملون المجدون عن العمل ، وينتظمون فى سلك أولى البطالة والكسل ؛ فتقعد الأمة عن النهوض بحاجات أبنائها ، ويصير اليسير من أمرها عسيرا ، وذلك هدم لبناء المدنية ، وتقويض لدعائم السعادة .

ولما كان الدين الإسلامى دين مساواة : لا يمتاز فيه الشريف عن الوضيع ، بل كل الناس أمام أوامره ونواهيه سواء — وجب تنفيذ أحكامه على الجميع : لا يعفى منها عظيم ولا شريف .

وفى هذا الحديث يبين الرسول أن من أسباب هلاك الأمم وسرعة فنائها أن يُحَابَى الأشراف والرؤساء وذوو الجاه والحسب ، ويعفوا من العقوبة إذا ما ارتكبوا جريمة ، وأن يعاقب الضعيف الذى لا جاه يحميه ، ولا عصبية تؤويه ؛ لأن هذه التفرقة بين الأفراد فى المعاملة تثير حقد العامة ، وتبعث كامن العداء فى صدورهم ، فيثورون ويخرجون على أولى الأمر منهم ، وينشرون الاضطرابات فى البلاد ، ولايثوبون إلا وقد ملئوا البلاد فزعا ، وأتوا على الأخضر واليابس ؛ ولذا ورد فى تكملة هذا الحديث ما يأتى : والذى نفسى بيده لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها .

(٢) قال صلى الله عليه وسلم :

" كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وكلكم مسئولٌ عن رَعِيَّتِهِ : فالإمامُ راعٍ وهو مسئولٌ عن رَعِيَّتِهِ ، والرجلُ راعٍ فِى أَهلِهِ وهو مسئولٌ عن رعِيَّتِهِ ، والمرأةُ راعِيةٌ فِى بيتِ زوجِها وهِى مسئولةٌ عن رعِيَّتِها ، والخادِم راعٍ فِى مالِ سَيِّدِهِ وهو مسئول عن رعِيَّتِهِ ، والرجلُ راعٍ فِى مالِ أَبِيهِ وهو مسئول عن رعِيَّتِهِ ، فكلكم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رعِيتِهِ " .

المفردات

راع : حافظ ومؤتمن . رعيته : ما عُهِدَ إليه حِفْظُهُ ورعايته .

الشرح

اقتضت شئون الحياة أن يكون كل إنسان مديرا وراعيا لأمر من الأمور ، فهو مطالب بحفظه والقيام به ، فإن قام بما وجب عليه كان له من الله أجر كبير ، وكان لعمله أثر فى الأمة خطير ، وإن قصر وخان استحق العقاب الشديد ، ولئن فاته فى الدنيا فإن عقاب الله فى الآخرة له بالمرصاد .

فكل من الإمام والوالى والملك راع ومؤتمن على أهل مملكته : ينشر العدل فيهم ، ويؤمنهم على أرواحهم وأموالهم ، ويحرص على حقوقهم ، ويدافع عنهم ، ويرقى شئونهم ، وينمى موارد ثرواتهم ، ومسئوليته فى ذلك خطيرة ، وبقدر ما فى يده من مصالحهم تكون رعايته ومحاسبته .

والزوج راع فى أسرته : يعلم أولاده ويثقفهم ، ويتفقد أمور إخوته وأخواته، وزوجه وخدمه ، فيأخذهم بآداب الدين ومكارم الأخلاق ، ويجنبهم مواطن الريبة ، ويكون لهم عينا يقظة لا تغفل عن شىء من أمورهم ، وقلبا رحيما يُظِلهم بشفقته وحنوه ، ورئيسا عادلا بينهم يتحرى مصالحهم ، وينفق عليهم مما آتاه الله ، سالكا فى ذلك سبيل الاقتصاد ، لا مبذرا ولا بخيلا .

والمرأة أمينة حفيظة على ما فى بيت زوجها من أولاد ومتاع وخدم ومال وسر : تقوم بتربية الأولاد التربية الصالحة ، وتكون لهم القدوة الحسنة ، وتحافظ على متاع زوجها وماله فلا تسرف فيه ولا تتهاون فى حفظه ، وتصون سره فلا تطلع عليه أحدا ، وتحرص على كرامته وشرفه أن ينالهما دنس أو ريبة ، وتراقب الخدم وما يباشرون من أعمال ؛ فإنها إن فعلت ذلك حفت بيتها وبنيها وزوجها بظلال من السعادة والنعيم والهناءة ، وإن توانت فى حراستها وشغلت بملاذها ورغباتها

وزينتها وأهوائها — أفسدت بيتها وجعلت منه مباءة سوء وفساد ، وأصبح من فيه وما فيه نهبا للتدهور والضياع .

والخادم أمين فى مال سيده : يجب عليه أن يرعاه كما يرعى ماله الخاص به ، فينميه بما يستطيع ، ويحفظه من التلف ؛ لأن منه يتناول أجره ويَطْعَم ويشرب ، فالأمانة تقتضيه أن يكون عليه رقيبا ، وفى سبيل تنميته مجدا دءوبا .

وكذلك الولد مؤتَمَن على مال أبيه : يحفظه ويثمره ويدبره بالصدق والأمانة ، ولا يخونه ولا يسرقه ، ولا يكذب فى حسابه ؛ لأن مال أبيه ماله ، وإليه مآله. والله محاسبه على مايكون منه إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وكلنا راع وكلنا مسئول عن رعيته على حسب حاله الاجتماعية وشأنه فى الحياة ؛ فالعمدة فى قريته ، والمأمور فى مركزه ، والنائب فى دائرته ، والرئيس فى ديوانه ، والناظر فى مدرسته ، والمدرس بين تلاميذه ، والعامل فى عمله ، والزارع فى مزرعته ، والتاجر فى متجره ، كل أولئك مسئول عما هو فى ولايته ، وبقدر ما يكون من حرص كل على رعيته يكون رقى الأمة وسعادة أفرادها .

فالحديث يحثنا على القيام بالواجبات ، والإحسان فى الأعمال ، والمحافظة على ما تحت أيدينا وما وكل إلينا من أمور وأعمال .

*
* *

(٣) قال النساءُ للنبِي صلى الله عليهِ وسلم :

غَلَبنَا عليك الرجالُ ، فاْجعل لنا يوما مِن نَفْسِك ، فَوَعَدَهُنَّ يوما لَقِيَهُنَّ فيهِ ، فوعظهن وأَمَرَهُنَّ . فكان فِيما قال لهن : "ما مِنكُنَّ امرأَةٌ تُقَدِّمُ ثلاثةً مِن وَلَدِها إلا كان لهـا حِجابا مِن النارِ" .

قالتِ امرأة : واثنين ! قال : "وَاثْنَيْن" .

المفـــردات

غَلَبَنَا عليك الرجال : اختصوا بك دوننا ، فلا نستطيع الاسترشاد منك .

حجابا : سترا ووقاية .

الشـــرح

طلب العلم واجب على كل مسلم ومسلمة ، ومعرفة الحلال والحرام ، وما يجوز وما لا يجوز من أسباب رقى الرجل والمرأة . وهؤلاء بعض نسـاء المؤمنين طلبن من النبي صلى الله عليه وسلم أن يخصص لهن يوما يجتمعن فيه إليه ، ليعلمهن أحكام الدين ، ويرشـدهن إلى محاسن الأخلاق ، وما يقربهن إلى الله ؛ لأنهن لايستطعن الجلوس فى مجالس الرجال لكثرة حيائهن ، ولأن من الأحكام الشرعية ما يختص بهن ؛ فيحول وجود الرجال الأجانب دون الاسـتفهام عنه ، فخصهن الرسول بيوم أرشدهن فيه ، وعلمهن ما تحتاج إليه المرأة لتسعد فى بيتها ، ويسعد معها أبناؤها وزوجها : من وجوب الصـدق ، والقيام بحقوق الزوج ، وحفظ السر ، وصيانة الشرف . وكان ممـا قال لهن : إن من رزقت ثلاثة أولاد ، فربتهم وأحسنت تربيتهم ، ثم ماتوا صغارا ، فصبرت واحتسبتهم عنـد الله ، ورضيت بقضائه — فإن الله يجعلهم وقاية لهـا من النار ، ويكرمها على حسب عملهـا وجميل صبرها . فقالت امرأة : وهل لمن قدمت ولدين من أولادها تلك الكرامة ؟ قال عليـه السلام : نعم لمن قدمت اثنين مثل ذلك ؛ لأن الشفقة على الصغير أشد ، والرحمة له أوفر ، والصبر على فقده من قوة اليقين بالله ، وعلامات الرضاء بالقضاء . ويؤخذ من الحديث شغف نساء المؤمنين بتعلم الدين ، وغلبة الحياء عليهن من مخالطة الرجال ، ووجوب الصـبر على المصيبة فى الولد ؛ لمـا فى ذلك من جزيل الأجر ، فضلا على أن الجزع لايرد قضاء ، ولا يعوض فاقدا .

(٤) قال صلى الله عليه وسلم :

" لَا حَسَدَ إلا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٍ آتاه اللهُ مالاً فسَلَّطَهُ على هَلَكَتِهِ فِي الحق ، وآخَرُ آتاهُ اللهُ حِكمةً فهو يقضِي بِها ويُعَلِّمها "

المفردات

الحسد : تَمَنِّي زوال نعمة الغير، والمراد به هنا تمنى أن يكون لك من الخير مثلُ ما لغيرك دون أن يزول ذلك عنه ، وهذا ما يسمى (الغِبطة) .

هلكته : إنفاقه . حكمة : صوابا فى الرأى والقول .

الشرح

يختلف تقدير الناس لأسباب السعادة ، ونظرهم إلى ما يرقى شأن الإنسان ويعلى قدره، فيتنافسون فى تحصيل ما يستطيعون من ذلك، ويجتهد كل أن ينال منه الحظ الأوفر ، والنصيب الأعظم ، وقد يجر ذلك إلى أن يحسد بعضهم بعضا على ما منحهم الله من مزيد فضل ، ويسعى فى زواله عنهم بوشاية أو عمل . وقد بين الحديث أن هناك خلتين هما الجديرتان بأن يتسابق الناس إلى التحلى بهما ، وبمقدار ما ينال الإنسان منهما يكون فضله ومنزلته وحظه من السعادة .

فالخلة الأولى : أن يكون الرجل واسع الثراء ، غزير المال ، فلا يبخل به على قومه ، ولا يقتر على نفسه ، ولا يسرف فيه ذات اليمين وذات الشمال : يبتغى به الجاه الزائف والرياء والشهرة . وإنما يتوخى به سبل البر والإنسانية ، والعزة لقومه وبلاده ، وصلة رحمه ، فيخفف به ويلات المكروبين ، وينفس عن البائسين والمحتاجين ، ويواسى به اليتامى والمساكين ، ويبذله فى سبيل الحق والشرف.

والخلة الثانية : أن يكون قد وهب له الله سدادا فى الرأى ، وصوابا فى القول والعمل، وتوفيقا وبصرا بمعرفة حقائق الأمور ؛ فلا يقول قولا إلا وقد وافق الحق

والعدل ، ولا يرى رأيا إلا وهو عين الحكمة والأصالة . ثم أفاض على النـاس من هداه وكمال عقله ، وعلَّمهم فكان فيهم العَـلَم الأوحد ، والإمام الثقة ، يرجعون إليه فى مشكلاتهم ، وينتهون عند إرشاده ، إذا قال فقوله الفصـل ، وإذا حكم فلا مرد لحـكمه .

فمن أراد الغبطة والحسد فليغبط من اتصف بهاتين الصفتين ؛ فهما جُمَّاع كل خير ، ومَعِين كل سعادة حقيقية : تثمران المحبة والألفة ، وتكسبان حسن الأحدوثة ، ووافر الثناء والحمد .

* * *

(٥) قال صلى الله عليه وسلم :

" من دعا إلى هُدًى كان له مِن ٱلأَجرِ مِثلُ أُجورِ مَنِ ٱتَّبَعَهُ لا يَنْقُصُ ذلكَ مِن أُجورِهِم شيئا . ومن دعا إلى ضلالةٍ كان عليهِ مِن ٱلإِثمِ مِثْلُ آثامِ مَنِ ٱتَّبَعَهُ لا يَنْقُصُ مِن آثامِهِم شيئا " .

المفــــردات

هدى : رشاد وإصلاح وسلامة إيمان .

ضلالة : زيغ وفساد عقيدة .

الإثم : الذنب الذى يقتضى العقاب .

الشرح

يهب الله سبحانه لبعض النـاس نورَ بصـيرة ، وصفاء عقيدة ، وقوة فطنة ، وسلامة إيمـان ؛ فيكون الواحد منهم نبراسا يضىء حَلَك الشبهات ، ويزيل عن العقول رَيْنَ الشك والارتياب ، وجِلاء يصفى القرائح المكدودة ، ويتولى إرشاد

النـاس إلى سبل صلاحهم ، وكشف ما عساه يخفى عليهـم من أمور دينهم ، أو يستعصِى فهمه من أسرار شريعتهم ، أو كالمـاء العذب صادف أرضا خِصبة أُلقِى فيها بذر طيب ، فلا يلبث أن يأتِى بأطيب الثمرات ، وأشهى الجَنَى : من نفوس قد طهرت من دنس الإلحاد ، وعقائدَ قد صفت من كدر الريب والزيغ ، فازأصحابها بسـلامة العقيدة وطهارة الطَّوِيَّة ، فنجَوْا واستحقوا من الله ثوابهـم كاملا ، وكان له من الثواب عنـد الغنى الكريم مثلُ ثواب من اتبعه لا ينقص ذلك شيئا من ثوابهم ، ولا غرو ؛ فإنهم ما نالوا ذلك إلا بفضـل هذا المرشد الهادى ، وما وصلوا إلى النجاة إلا بسببه .

كما يبتلى بعضا من الناس بفساد العقل ، وسخف الرأى وسَقَم اليقين ، فيختلط عليهم الصواب ، ويعجزهم الوصول إلى الحق ، فيتخبطون فى ظلمات الضلالة ويهيمون فى وادى الشرك ، ويظنون أنهـم أولو رأى محترم ، وعقل راجح ، ومذهب صادق ، فيجتهدون فى ترويج باطلهم ، وتحسين زائف قولهم ، ويَدْعُونَ ضعاف العقول إلى اعتناق مبادئهم ، فلا يعدمون قلة هزيلة يقتنصونها ، ولا يزالون بها حتى يردوها عن فطرتها السليمة إلى وَعْثاء التخبط والحيرة فتـتردى فى مهاوى الهلكة ، وتبوء فى الآخرة بسوء العقبى ؛ فهذه الفئة الضالة تستحق من الله القوى العزيز عذابا عظيما بقدر عقاب من أفسدت عقيدتهم ، وأضلت صوابهم .

فليتق الله أولئك الذين يغررون بعقول السُّـذَّج من الأبرياء ، ويدعونهم إلى بدع وأباطيلَ يُلْبِسونها ثوب الحق المهلهل الذى لا يُخْفِى ما وراءه ، ولا تلبث أن تنكشف للناس سوءاتهم . وليراقبوا العلى الكبير المنتقم الجبار ، فإن نار جهنم قد أعِدّت لهم وبئس المصير .

*
* *

(٦) قال عليه الصلاة والسلام :

" السَّمْعُ والطاعة حَقٌّ ما لم يُؤْمَرْ بِمعصية . فإذا أُمِرَ بِمَعْصِيةٍ فلا سَمْعَ ولا طَاعَةَ " .

الشرح

تقضى الشئون العمرانية ، والنظم الدستورية أن يكون فى كل أمة ولاة وحكام يتولَّوْن شئونها ، ويُصَرِّفُون أمورها ، ويُسَيِّرُونَ دَفَّةَ الحكم فيها ، ويوجهون الأفراد إلى ما فيه رقيهم وإسعادهم ، فهذا الحديث يرشدهم إلى وجوب طاعة الأئمة والولاة فيما يضعون من نظم ، ويقررون من قواعد وأحكام ؛ كى يعرف كل واحد ما له وما عليه ؛ فيؤدىَ ما عليه ويطلب ما له ، ومتى تحقق ذلك استطاع هؤلاء الحكام أن يقوموا بأعباء الحكم خير قيام ، ويتفرغوا للعمل المنتج للرعية ، ويتضافر الجميع على ما يرقى شأن الفرد والأمة ، وينصرف كل واحد إلى عمله مطمئنا آمنا على نفسه وماله وسائر حقوقه ، فتُسْتَفَادَ العلوم ، وتُحْذَقَ الفنون ، وتنتشرَ الصناعات ويعم الأمن والعدل ، وتطمئن القلوب إلى احترام الحقوق والنزول على أحكام القوانين ، فإذا وضعت قوانين مالية وجب على جميع الأفراد احترامها وتنفيذها ، وإذا شرعت نظم زراعية أو صناعية أو عسكرية أو صحية خضع كُلٌّ لها بحيث لا يباح لأحد التمرد عليها ، ولا يسوغ لكائن عصيانها ، وإلا كانت الفوضى ، واختل النظام ، واضطرب حبل الأمن ، وانتشر الظلم والفساد ، واختلت أسباب الحياة .

ولقد قال الله تعالى :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ »

كل ذلك متى كانت تلك الأوامر والقوانين فى حدود الشرع والحق والعدل، أما إذا قُصِدَ بها تحقيق ظلم ، أو تلاعب بمصالح الأمة فلا تلزم طاعتها ، ويجب بذل النصح لمن أصدرها ، وإظهار ما فيها من سيئات ، والحيلولة دون تنفيذها بالطرق المشروعة ، والموعظة الحسنة ، وهناك المجالس النيابية وصفحات الصحف وما إلى ذلك .

ولقد قال عمر رضى الله عنه : "لا خير فيكم ما لم تقولوا، ولا خير فِيَّ ما لم أسمع" وإن فى حسن سياسة الناصحين ما يكفل رجوع من حاد إلى الحق والصواب ، وسلوكه السبيل السوى . وبهذا تستقيم الأمور ، وتصلح الشئون ، كما أن من الخير للولاة وأولى الأمر أن يستمعوا لنصح المخلصين ، ويُصْغُوا إلى إرشاد المرشدين ؛ لأن فى ذلك تبصرةً بعيوبهم ، وصلاحا لهم ، ولا يمكنهم أن يصلحوا رعيتهم وهم فاسدون ، أو يرشدوهم وهم غاوون ، وهم مكان الروح من الجسد : لاحياة له إلا بها ، ولا صلاح له إلا بصلاحها .

(٧) (اسْتَعْمَلَ رسولُ اللهِ صلى الله عليهِ وسلم رَجُلًا مِن الْأَزْدِ على الصَّدَقاتِ . فلما رَجَعَ حاسَبَه ، فقال الرجل : هذا لكم وهذا أُهْدِىَ إِلَىَّ ، فقال النبِي صلى الله عليهِ وسلم : "ما بال الرجلِ نستعمِلُه على العملِ مِما وَلَّانَا اللهُ فيقول : هٰذا لكم وهذا أُهْدِىَ إِلَىَّ . أَفَلَا قعد فِى بيتِ أَبِيهِ وأُمهِ فينظرَ أَيُهْدَى إِليه أَم لا ؟ والذى نَفْسِى بِيدِهِ لا نستعمِلُ رجلا على العملِ مِما وَلَّانَا اللهُ فيَغُلَّ مِنه شيئا إلا جاء يوم القِيامةِ يحمِلُه على رقبتِهِ : إن كان بعِيرا له رُغَاء . وإن كان بقرةً لها خُوَار ، وإن كان شاة تَيْعَرُ ، ثم رفع يديهِ إلى السماءِ وقال : اللَّهُمَّ هل بَلَّغْتُ ؟ اللَّهُمَّ هل بَلَّغْتُ ؟ قالها مرتينِ أَو ثلاثا " .

المفردات

الْأَزْدُ : إحدى قبائل العرب . على الصدقات : يجمع الصدقات من الأغنياء. فيَغُلَّ : يُخفى لنفسه . الرُّغَاءُ : صوت البعير . الخُوَارُ : صوت البقر . تَيْعَرُ : تصيح

الشرح

تقضى سياسة الدولة وحسن تصريف شئون الرعية أن يتفقد الملوك والولاة أحوال عمالهم ومرءوسيهم، ليروا أقاموا بالعدل فيما عهد إليهم ، أم ظلموا من تحت رياستهم؟ وليكونوا ملمين بتصرفات هؤلاء العمال ، وما أخذوا وما أعطَوْا . وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب لنا المثل فى ذلك ، فقد وَلَّى أحد المسلمين جمع الصدقات وأنواع الزكاة من الأغنياء، فلما عاد من عمله حاسبه النبى على ما معه فقال: إن بعضه خاص به قد أُهْدِى إليه ، ولا يدخل فيما هو حق للمسلمين ، فغضب النبى ؛ لأنه رأى أحد ولاته قد اتخذ وظيفته وسيلة لجر مغنم له ، وجعل منها طريقا لغناه واستفادته ما لا يستحقه من هدايا تُقَدَّم إليه هى فى الواقع رشاوى وأموالٌ تعطى له بدون مسوغ ، بحيث لو لم يقلَّد هذا العمل ما أُعْطِىَ شيئا، ووجد النبى أَن هذا التصرف السىء يفسد خطط السياسة الحكيمة ، ويُطْمِعُ العمال فى أموال الناس، ويغريهم بالخيانة والتهاون فيما وكل إليهم ، ويجعل همهم منصرفا إلى جمع المال بأى طريق ، ويصرفهم عما فُوِّضَ إليهم ، ويحول بينهم وبين تحقيق العدالة بين جميع الأفراد . فحذر المسلمين أن تمتد أيديهم إلى مال أحد، أو يَسْتَشْرِفَ أحدهم إلى ما فى يد غيره ، أو يخفى لنفسه شيئا مما فى عهدته بزعم أنه خاص به ؛ لأن من يفعل ذلك يفضحه الله تعالى يوم القيامة على ملأ الأشهاد ، ويُحَمِّله ما أخفاه على كتفيه ، حتى ينكشف سِتْرُهُ ، وينتشر بين الخلائق إثمه ووِزْرُه .

فيجب على من ولى أمور المسلمين أن يُشرف على أعمال من تحت سلطته ، ويقف على أحوالهم وتصرفاتهم ؛ فإن إهمالهم يجرئهم على السرقة والتزوير والاختلاس وإرهاق الناس بالظلم ، فيضطرب الأمن ويختل النظام، وتعم الفوضى ولا تقوم بذلك للدولة قائمة . كما يجب على من وُلِّىَ عملا أن يكون أمينا ، بعيدا عن الشبهات ما استطاع ، حريصا على شرفه وحسن سمعته ، مراقبا ربه فيمن وكل إليه أمورهم ؛ كى يحفظه الله من خزى الدنيا وفضيحة الآخرة .

(٨) قال عليه الصلاة والسلام :

" سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله يوم القِيامةِ فِى ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: إمامٌ عادِلٌ ، وشابٌّ نَشَأَ فِى عِبادةِ الله ، ورَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ فِى خَلَاءٍ ففاضت عيناه ، ورجل قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِى المسجِدِ ، ورجلانِ تَحَابَّا فِى اللهِ . ورجل دَعَتْهُ امرأةٌ ذات مَنْصِبٍ وجمالٍ إلى نفسِها فقال : إنى أَخاف الله ، ورجل تصدق فأَخفاها حتى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما صَنَعت يمينُه "

الشرح

اشتمل هذا الحديث على صفات سبعة من المؤمنين المخلصين ، قد وعد الله أن يكلأهم يوم القيامة بحفظه ، ويحوطهم بعنايته ، ويَقِيَهُمْ أهوال الساعة وعذاب الآخرة .

فأولهم : حاكم تولى شئون المسلمين فسار بينهم بالعدل ، وأذاقهم حلاوة الأمن ، وانتصف للظلوم من الظالم ، فلم يخش ضعيف من جوره ، ولم يطمع قوى فى جاهه وسلطانه ، أخذ الناس بالحزم وسلوك الطريق المستقيم ، من غير

إفراط ولا تفريط ، وسوّى بينهم فى الحقوق والواجبات ، لا يجدى لديه التملق ولا النفاق، ولا يروج فى سوقه الرياء والمداهنة ، ولا يُتَقَرَّبُ إليه إلا بالاخلاص فى العمل ، حتى اطمأن كل واحد على نفسه وماله .

وثانيهم : شاب كملت قوته ، وتوافر نشاطه وجَلَده ، فراقب الله فى سره وجهره ، ولازم عبادته ، لم تَغْلِبه الشهوة ، ولم تأسره دوافع الهوى والطيش .

وثالثهم : رجل خلا إلى نفسه فتذكر جَبَرُوتَ ربه وبطشَه بالعصاة والمذنبين ، ورحمته وإحسانه بالطائعين المخلصين . فلم يدر من أى الفريقين يكون . فاغرورقت عيناه بالدموع ؛ طمعا فى ثوابه وغفرانه ، ورهبة من عذابه وأليم عقابه . لا رياء ولا مخادعة أمام الناس ، بل عن شدة تأثروصدق رهبة .

ورابعهم : من حبب الله إليه المساجد وعبادة مولاه ، فيسرع إليها متى حان وقت الصلاة ، لايشغله عنها شئ مهما عظم شأنه ، فتراه دائم التضرع والخضوع لله جل وعلا ، قد تجافى عن حب الدنيا وشهواتها وهى رأس كل خطيئة ، ففر منها إلى بيوت الله ومجتمَع المسلمين ومناط وحدتهم والتئام كلمتهم .

وخامسهم : رجلان تمكنت بينهما روابط المحبة الصادقة ، والمودة الخالصة من شوائب النفاق وابتغاء النفع ، لا يؤثر فيهما غِنًى ولا فَقْرٌ ، ولا يزيدهما مرور الأيام إلا وثوقا وتأكدا ، سِرُّهُمَا فى طاعة الله ، وجهرهما فى مرضاته : لايتناجيان بمعصية ، ولا يضمران منكرا ، ولا تسعى أقدامُهما إلى فسق أو فجور ، يجتمعان برابطة الدين وحبه ، ويفترقان بالغيرة عليــه والدفاع عنه ، لا لغرض زائل ، أو متاع من الدنيا قليل .

وسادسهم : رجل دُعِى إلى معصية فأبى خوفا من قوة الله وشــدة بطشه بالعصاة والفاسقين ، ولأنه لم يُسْلَب الحياءَ حتى يجاهر الله بالمنكر .

وسابعهم : رجل آتاه الله مالا فكان ينفق منه على ذوى الحاجات والمعوزين يبتغى رضا الله ، وأداء ما عليه من الحقوق ، فهو بعيد عن المراءاة وحب الثناء من الناس ، يكاد — لإخفائه الصدقة — لا تعلم شماله ما تُنفِق يمينه ، وليس من أولئك الذين لا يبذلون درهما إلا إذا دُقَّتْ لهم الطبول، وأشاد الناس باسمهم، ولُقِّبوا بألقاب التبجيل والتعظيم .

فهؤلاء السبعة قد بلغوا الذروة فى الإخلاص والتقوى وعلو الهمة ، فلا غرو أن تكفل الله بحفظهم يوم الفزع الأكبر ، ومدّ عليهم جناح رحمته وظلال عنايته .

* * *

(٩) قال عليه الصلاة والسلام :

" لَعَنَ اللَّهُ المُتَشَبِّهاتِ مِن النساءِ بِالرجالِ ، والمتشبهين مِن الرجالِ بِالنِّساءِ " .

المفردات

لعن الله فلانا : حرمه ثوابه ، وطرده من رحمته .

الشرح

جعل الله جلت قدرته الإنسان صنفين : ذكرا وأنثى ، وجعل لكل صنف من الخلقِ وتركيب الأعضاء والصورة ما يتفق والعملَ الذى يزاوله ، وما يناسب مهمته فى الحياة، ليسعد الجميع ، فجعل الرجل متين الأعضاء ، مفتول السواعد ، قوى الأطراف ، ذا صبر وجَلَد ، وقوة تفكير ، وطول أناة ، وصوت أَجَشّ ، ورأس صُلْب ؛ لأن مطالب الحياة وتكاليفها ، والعبء المُلْقَى على عاتقه منها يتطلب ذلك ؛ فهو الذى يقود الجيوش ، ويحارب الأعداء ، ويحرث الأرض و يسقى الزرع ، ويجالد

الخصوم ، ويتأخ عن الأهل والعشيرة ، ويجوب الأقطار والبلاد ابتغاء الرزق والبحث والكشف عن مجهول البقاع ، وذلك كله يتطلب خشونة الملمس وشهامة وشجاعة وجَلَدًا .

وليس على المرأة قسط من ذلك ، بل لا يتعدى نصيبها فى الحياة مزاولة شئون المنزل وتربية الأولاد ، والقيام على أموال زوجها فى منزلها بالرعاية والحفظ ، وما عسى أن تضطرها حالها الخاصة إلى ممارسته من بعض الصناعات الصغيرة ، ولذا لم يهب لها الله من القوى وتركيب الجسم ما وهب للرجل ؛ لأنها فى غير حاجة إلى ذلك كله ، بل هى فى حاجة إلى نوع من التجمل والتزين لحفظ أنوثتها .

فمن مخالفة الفطرة أن يحاول كل صِنف التمثل بأفراد الصنف الآخر ، ومن حاول ذلك باء بالخذلان فضلا عما يلحقه من الهوان والمذلة .

فمن القبيح بالرجل أن يخضب بنانه ، أو يخضع بقوله ، ومن غير اللائق به أن يزجج حاجبيه ، أو يبالغ فى ترجيل شعره وتصفيفه ، أو يتثنى فى مِشيته ، أو يقلد النساء فى منطقهن ولهجة كلامهن ، أو فى تزيين أظافره ووجهه وثيابه ؛ لأنَّ ذلك يُزْرِى بكرامة الرجال ، ويَذْهَبُ بشرف الرجولة ، ولا يرضى به لنفسه رجل له شهامة ومروءة وكرامة .

كما أن من السماجة أن تحاول امرأة التشبه بالرجال فتحاكيهم فى منطقهم ، أو ملبسهم ، أو مزاولة الاعمال التى تتطلب جهدا ومشقة واختلاطا ؛ لأن ذلك يذهب بمعنى الأنوثة فيها ، ويجعلها مبتذَلة مَهينة ، ثم هى ليست ببالغة ما تحاول ؛ لأن طبيعتها تأبى عليها اللحاق بالرجل ، وتقعد بها عن مجاراته وإدراكه فى مضمار الحياة الذى أعدّه الله له .

لهذا كان ملعونا مطرودا من رحمة الله ، محروما من ثوابه وجنته من يتشبه من الرجال بالنساء ، ومن تتشبه من النساء بالرجال .

تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق
فى يوم ٢٠ من جمادى الثانية سنة ١٣٥٧
(١٦ من أغسطس سنة ١٩٣٨) م

مدير المطبعة الاميرية
محمد أمين بهجت

المطبعة الاميرية ١٢٥٤٣-١٩٣٧-٨٠٠٠